UNIVERSITY OF TORONTO

تجليد
صالح الذكر
بيروت - المزرعة

297.04:N16mA

النجار، محمد الطيب.

من وحي البلد الأمين.

297.04
N16mA
- 6 Feb 68

297.04
N16m A
C.1

من وحي البلد الأمين

بقلم

محمد الطيب النجار

الحائز لدرجة الأستاذية فى التاريخ الإسلامى
وعضو البعثة الأزهرية إلى المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربى

الإهداء

إلى البلد الطيب

إلى البلد الطيب الذى جعله الله مهوى القلوب ، وملتقى الشعوب ، ومنار الهدى والرشاد .

إلى البلد الحرام الذى كرمه الله بالاسلام فحول ترابه تبرا ، وجعل من حصبائه درا ، وصير الفلاة الجرداء جنة فيحاء ، وأنبت بالوادى المجدب الخضراء شجرة وارفة الظلال أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

إلى البلد الأمين الذى من الله علىّ بالاقامة فيه أداء لرسالة العلم والدين ، فأوحى إلىّ بكثير من الواجبات ، وكان مما أوحى هذه الصفحات .

إلى مكة المكرمة أهلها والوافدين إليها من حجاج البيت العتيق على توالى الدهور والعصور أقدم هذا الكتاب ، سائلا أن ينفع بما فيه وأن يلهمنا سبيل الرشد والصواب .

محمد الطيب النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الباحث الغزير الأستاذ عبد الله عبد الجبار

مدير البعثات العلمية السعودية بمصر

١

لست أدرى أأتحدث عن الكتاب ، أم عن صاحب الكتاب ، أم أشركهما معاً فيما أنا ماض بسبيله ؛ فمما لاريب فيه أنَّ كلاً منهما جدير بالحديث ، خليق بالإفاضة فيه .

والحديث عن أثر فكرى ، أو إنتاج عقلى ، يستلزم فى كثير من الأحيان ، الحديث عن صاحب ذلك الأثر ، أو مبدع ذلك الإنتاج ؛ إذ هو ثمرة من ثماره ، تتجلى فيه روحه وثقافته ، ومزاجه وشخصيته ، وبيئته الروحية والمادية جميعاً .

والأستاذ محمد الطيب النجار — كما عرفته — رجل لطيف التأتى ، أنيس المحضر ، جم الحياء ، غزير العلم فى غير كِبْر ، ولا ادّعاء . . وله شخصية محبوبة تتسم بالرزانة والهدوء ، والتريُّث والأناة . . . وهو يعجبك حين يخطب ، ويعجبك حين يتحدث . ويعجبك حين يحاضر ، ويعجبك حين تقرأ له أثراً من آثاره العلمية فى صحيفة من الصحف ، أو مجلة من المجلات .

وهو بعد ، أزهرىّ الثقافة والنشأة ، يمثل والده طبقة الآباء من العلماء[1] ، ويمثل هو طبقة الأبناء ؛ أو إن شئت فقل : يمثل والده الجيل الأزهرى القديم

(١) هو فضيلة الشيخ الطيب النجار من كبار أساتذة كلية أصول الدين .

ويمثل هو الجيل الأزهرى الجديد ؛ ذلك الجيل الذى تتبيَّنُ منه حين تلقاه « مزاجاً علمياً عقلياً ، يجمع بين جلال القديم خُلقاً وفضلاً وعلماً ، وبين جمال الحديث ذوقاً وسماحة وبياناً ، وفهماً لحرية البحث العلمى فهماً سليما لايعدو على الأصول المقررة جرياً وراء الصيت الزائف ، واصطناعاً للبطولة الباطلة — على حساب الحق العلمى والقدسية الدينية الصحيحة »[1] .

٢

بهذا المزاج العلمى كتب الأستاذ النجار (أطروحته) القيِّمة التى نال بها درجة (الأستاذية) فى التاريخ الإسلامى من الجامعة الأزهرية . وهى تعادل درجة (الدكتوراه) فى الجامعات الأخرى . وقد أتيح لهـذه الرسالة التى سمَّاها « الموالى فى العصر الأموى » أن تنشر على الناس فى كتاب ، وأن يتلقاها المعنيون بالدراسات الإسلامية بما هى أهلٌ له من التقدير والإجلال والإعجاب والإكبار ؛ ذلك لما عُرِف به صاحبها من دقة فى البحث ، وصحة فى النهج ، وإيثار للحق ، وبُعْدٍ عن الغرض ، وتوَخٍّ للأمانة العلمية أصدق ما تكون الأمانة العلمية ! ! .

وحسبك — أيها القارئ الكريم — دليلاً على ما أقول ، أن أستاذاً كبيراً من أساتذة الجيل فى جامعة فؤاد الأول ، وهو صاحب العزة الأستاذ أحمد الشايب بك يقول عنها : « هذه رسالة يجب أن تخرج إلى السوق العلمية لتلقى جزاءها ، وتؤدى واجبها الثقافى ؛ ولا يصح أن تحبس فتنسى ، أو تنشر بعد أوانها ، أو تصير نهباً للعادين » . ولا غرو فهى أحسن وأوفى مرجع فى هذا الموضوع .

---

(١) من تقديم صاحب العزة أحمد الشايب بك لكتاب « الموالى فى العصر الأموى » للأستاذ النجار .

٣

وبهذه الكفاية العلمية الراقية ، والرأس المتوّج بأرقى الشهادات ، أقبل الأستاذ « النجار » يسعى إلى البلد الأمين ، ليؤدّى رسالة العلم والدين ، حينما اختاره الأزهر الشريف عضواً بالبعثة الأزهرية للتدريس بالمملكة العربية السعودية . . أقبل و بين جنبيه همة عالية ، ورسالة سامية ؛ فلم يقتصر نشاطه الثقافى بمكة المكرمة على إلقاء الدروس والمحاضرات بكلية الشريعة أو المعهد العلمى السعودى ومدرسة تحضير البعثات ، و إنما امتدّ إلى أبعد من ذلك ؛ فقد كان ، ولا يزال ، يساهم بمجهودات عظيمة فى الرقىّ بجماعة المسامرات الأدبية يُفيض عليها من روحه و بيانه ، ويُسبغ عليها من علمه وأدبه مما كان له أثر كبير فى تقويم النشْء ، وصقل ملكاته ، وشحذ همه ، وتوجيه حياته وجهات صالحة ، حتى أصبح الأستاذ بذلك أقوى ساعدٍ لرئيسها الشاب الناهض الأستاذ عبد الله بغدادى وكيل مدرسة تحضير البعثات .

و إنه لمنظرٌ رائع جميل يغمرك بالغبطة والسرور ، أن ترى الأستاذ الجليل وهو منطلق بطلابه فى كلية الشريعة إلى غار حراء أو غار ثور يُلقى عليهم الدروس والعظات نماذج حية فى نفس المغانى المقدسة التى جرت فيها الأحداثُ التاريخية الفاصلة ، حيث كان نبينا العظيم يتلقف الوحى والتنزيل ، أو كان يفر بدينه من وجه الشرك والطغيان إلى مستقر الأمن والسلام والاطمئنان !

وليس هذا فحسب ، بل إن للأستاذ النجار ألواناً أخرى من النشاط الثقافى والدينى والأدبى فى صحيفة البلاد السعودية ، ومجلة الحج الغراء ، وفى الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية . . أحاديث ومقالات قد ضُمِّخَتْ بعبير البيت الحرام !

وهذا النشاط الممتد دليل حيّ على فهمٍ عميق لرسالة المبعوث التى يجب « ألا تقتصر على دروس تُلقى بين جدران المدارس والمعاهد » بل يكون صاحبها « كالبلبل الغريد يقع على كل غصنٍ ، ويسجع فى كل روض ، ويغدو ويروح من دوح إلى دوح ، ويتنقل فى مملكة الفضاء كلما شاء وأينما شاء[1] » .

٤

جاس الأستاذ النجار خلال المغانى المقدسة ، وطافت روحه حول البيت العتيق فامتلأت نفسه بالمعانى الروحية ، التى انثالت على قلمه ، فكان منها هذا الأثر الحميد « من وحى البلد الأمين » الذى أتشرف اليوم بتقديمه للقارىء الكريم .

وإذا أردنا أن نعقد مقارنة وجيزة بين الكتاب السابق والكتاب اللاحق قلنا : إن كتاب (الموالى فى الإسلام) كتابٌ علمى تاريخي يتناول موضوعاً خاصاً وقد كُتِبَ لخاصة القراء ؛ على حين أن كتاب (من وحى البلد الأمين) كتاب يشمل موضوعات تاريخية واجتماعية وتهذيبية متفرقة ويقصد به خاصة القراء وعامتهم على السواء .

٥

وإن هذا الكتاب الجديد ليعرض فيما يعرض ضروباً من الأخلاق الإسلامية السامية كالصبر والإيمان ، والإيثار والإحسان ؛ يعرض لها كما يدعو إليها القرآن ، وكما تصفها السنة ، وكما تؤكدها أقوال الصحابة ، وأعمال المجاهدين الأولين . كما يرسم ألواناً من الجهاد المقدس فى سبيل المبدأ والعقيدة ، وفنوناً من الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين العدل والظلم ، بين رأس الشرك الآفن الخرف وبين نور التوحيد الخالد . . كما يعالج أمراضاً

---

(١) من مقدمة المؤلف ص ٤

اجتماعية انتشرت فى البيئات الإسلامية فكانت سبباً فى تدهورها وانحطاطها وتقهقرها .

وقبل أن أمضى فى العرض والتحليل ، أحب أن ألاحظ للقارىء الكريم أن المؤلف حين اعتزم طبع هذا الكتاب كان حريصاً كل الحرص على ألا يشعر القارىء فى طريقه بشىء من النصب واللغوب ، أو يحس أنه قد انتقل من جوٍّ إلى جو غريب .

فالكتاب — وإن كان مجموعة من خواطر متنوعة ، وطائفة من بحوث ومقالات متفرقة كتبت فى مناسبات مختلفة — إلا أن مؤلفه — على الرغم من ذلك كله — قد تخيَّر لكل بحث من بحوثه موضعه اللائق . حتى أن القارىء إذا تتبع الكتاب من أوله لم يشعر فى طريقه بانتقال مفاجىء ، أو تغير طارىء بل يشعر بالصلة والقرابة بين الموضوعات المتجاررة ، فالنصف الأول من الكتاب ينتظم مجموعة من البحوث التاريخية ، إذا استثنينا (الوازع الدينى) وقد خضعت كلها للترتيب الزمنى والتسلسل التاريخى ، وإنما كان « الوازع الدينى » فى هذا الموضع المتقدم ، لأنه القوة الدافعة التى تؤثر فى سلوك الناس وتصرفاتهم ، ولولا ما فى الكلمة الأولى « للبيت ربٌّ يحميه » من روعة الذكرى وبراعة الاستهلال ، لكان الوازع الدينى أول موضوعات هذا الكتاب.

وينتظم النصف الثانى من الكتاب مجموعة من الكلمات الدينية والاجتماعية ، وقد راعى فى ترتيبها أن تكون هناك صلة بين كل موضوع والموضوع الذى يليه ، وأظن أن من السهل على القارىء أن يدرك العلاقة بين « الرشوة » و « نهب مال اليتيم » وأن يدرك العلاقة بين هذين ، وبين « نزغات الشيطان » أو العلاقة مثلا بين « التغالى فى المهور » و « حقوق

الزوجية » و « التوصية بالوالدين » ونصائح « الأب إلى أبنائه » وكذلك العلاقة بين « لمن هذه الدنيا ؟ » وبين « الحياة الخالدة » .

قام المؤلف المفضال بهذا اللون من الترتيب والتنسيق ، بينا نرى كثيراً من أجلاء المؤلفين لا يحفلون بترتيب المقالات التى تجمع فى كتاب . . ولقد أضاف المؤلف بذلك حسنة إلى حسنات . . .

وقد كان أكثر احتفالا وأدق نظاما فى تنسيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنوادر والطرائف والكلمات الحكيمة التى تجدها مبثوثة فى ثنايا هذا الكتاب فلا تكاد ترى شيئاً منها فى غير موضعه المقسوم له ، ومكانه اللائق به .

٦

والأستاذ المفضال لا يعنى بتفصيل الأحداث ، بقدر ما يعنى بتلمس العبر والعظات ، والاهتمام بالجوهر ، لا بالعرض ، وباللباب لا بالقشور ؛ أفلا يروقك أن تقرأ موقف الدين الحنيف من العصبية القبلية والعصبية العربية ، « وكيف أشرف الإسلام على العالم بدستور قوى متين يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وينشر العدالة والمساواة بين جميع الأمم والأفراد ، وينفى الفوارق بين العرب والعجم ، فليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى » .

ألا يروقك أن ترى بلالا الحبشى مؤذن الرسول يدفعه النبى باصلاحه وبلائه إلى أعز مكانة وأسماها ، وصهيباً الرومى يقدمه الفاروق على المهاجرين والأنصار فيصلى بالناس أماما ، وسلمان الفارسى تنسيه عدالة الإسلام جنسيته حتى ليقول مفتخراً : أنا ابن الإسلام ، مما ينطبق عليه قول الشاعر :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم (١)

---

(١) ص ٧٣ ، ٧٤

ألا يعجبك أن تقرأ هـذا الـكلام وتتخذه لك نبراساً .

« إن العقل والدين يقضيان بأن يسعى الإنسان لغرض خاص هو إرضاء الله ، ولا يعنيه بعد ذلك أنْ رضى الناس أم سخطوا ، أعلنوا الحرب عليه ، أم سالموا ، والعقل والدين يقضيان بألا يحامل الإنسان أحداً على حساب الحق والخلق ، وألا يتغاضى عن منـكر من القول أو الفعل ارضاء لعظيم أو كبير ، وألا يسلك سبيل المداهنة والرياء والمراوغة والالتواء ، فيسكت عن ظلم الظالم وإثم الآثم حرصاً على منصب أو إرضاء لحاكم[1] » .

٧

ربما قلت — أيها القارئ الـكريم — إن كثيراً مما ذكر فى هذا الـكتاب معروف مطروق ، ولـكن ما أكثر العلم المعروف الذى يحتاج إلى توكيد ! وما أكثر المعانى المطروقة التى تفتقر إلى عرض جديد ! ! وهذا مافعله الأستاذ النجار فقد عرض لنا « من وحى البلد الأمين » ما عرض فى أسلوب شائق جذاب تلمس فيه شخصيته واضحة المعالم والسمات ؛ أناة وتريثاً وهدوءاً فى أغلب الأحيان ، وثورة وانفعالاً وغضباً فى قليل من الأحيان ، ولـكنها ثورة الإيمـان ، وغضب الرجل الصادق الوجدان على الإنسان الذى يجحد حقوق أخيه الإنسان ! استمع إليه وهو يثور على الذين ينفذون أوامر الله مادامت لا تـكلف شيئاً من المـال فإذا ما جاء دور الزكاة والإحسان إلى الفقراء ولّوا فراراً ، فيقول : « وترى[2] الرجل منهم وهو يمشى على الذهب ، ويتبختر ويختال بين الحرير والفراش الوثير ، ويبعثر الأموال لإشباع الشهوات الدنيا ، والملذات الشيطانية الخبيثة ، ومع ذلك يضن بالمـال اليسير على البائس الفقير ،

(١) من موضوع « رضا الناس غاية لا تدرك » ص ١٦٠

(٢) ص ٨٥ ، ٨٦

وإذا ما حاولتَ أن تستصرخ همته (الوانيـة) نحو إغاثة المعوزين وإعانة المحتاجين . وقلت له فلان فقير يستحق العطف والرعاية ، أجابك فى تبجُّح واستهتار « رزقه على الله » « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » . وكأنما يظن أولئك السفهاء أن الله سينزل على الفقراء مائدة من السماء ، فيا للعجب ! ! ويالله لهذا المنطق السقيم والطبع الخبيث اللئيم » .

وموضوع الصبر قد عالجه كثير من رجال الدين على النحو التقليدى المكرور المعروف ؟ ولكن الأستاذ النجار حين أراد الكتابة فيه عالجه على نحو جديد إذ تخيل ظلالاً وارفة هى جنة المؤمنين فى الدنيا يفرون إليها حينما تفاجئهم الحياة بما تحمله من متاعب وآلام وعنت و إرهاق ومخاوف ، فيجدون فيها من الخير والمتاع ما يُبدل خوفهم أمناً وألمهم أملاً وما يجعل من متاعبهم راحة وسعادة وطمأنينة ، ثم يظلون ينعمون بهذه السعادة الروحية والطمأنينة النفسية حتى تنطوى حياتهم ، ويجىء أجلهم ، وإذ ذاك ينتقلون من هذه الظلال إلى ظل دائم ظليل » وليست هذه الظلال إلا « ظلال الصبر الجميل » وعلى هذا النمط الطريف يمضى إلى نهاية الموضوع (١) .

وما أجملها لفتة ، تلك التى تلمح فيها فطنة العالم الدينى حين ينتفع بنظرية من نظريات علم النفس الحديث ويبنى عليها موضوعاً من موضوعاته الدينية أو الاجتماعية ! استمع إليـه وهو يرد حلف الخلافين إلى مركب النقص «inferiority Complex» أو كما يُعبر ادلر نفسه «inferiority feeling» الشعور بالنقص » فيقول :

« الشعور بالنقص فى ناحية من النواحى يدفع صاحبه دائماً إلى أن يحاول تغطية هذا النقص وستره بوسائل كثيرة ، وقد يندفع الشخص أحياناً إلى هذه

---

(١) ص ١٠٨

المحاولة دون أن يفكر فى أنها تُعطى نقصاً لديه أو تستر عيباً فيه ، ومثل هذا التصرف يكون من عمل العقل الباطن » .. إلى أن يقول : « وعلى هـذا الأساس يمكننا أن نقول إن هؤلاء الذين يعمدون إلى الحلف بسبب أو من غير سبب ، ويدعمون كلامهم بالقسم واليمين دون ضرورة تُلجئهم إلى هذا القسم واليمين ، هؤلاء بلا شك كأنهم يحسون أن الناس قد نفذت إلى ضمائرهم وعرفت الحقائق فهم يغطونها عن عيون الناس بما يثيرونه من ضباب أو دخان وأعنى بهذا أيمانهم الكاذبة التى يحفون بها ذلك الزور والبهتان[1] » .

وقد كان من رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسير سورة الفيل أن الطير الأبابيل هى الرياح المتجمعة ، وأن الحجارة من السجيل هى ذرات التراب التى حملت ميكروب الجدرى ففتك بأصحاب الفيل ، وهو تفسير يستهوى النفوس التى تعشق الجديد والطريف ، وقد وقع فى نفسى موقعا حسناً لجدّته وطرافته ، وكنت أفضله على ما قاله المفسرون فى هذه السورة .

ولـكنى حينما قرأت نقد الأستاذ النجار لهذا الرأى عدلت عنه لأنه أتى بالحجج الدامغة التى تدحضه وتبطله ، وذلك حيث يقول :

« إنه لم يعهد فى لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أى جماعات من الطير ، ولا ينبغى أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد ، ولا يصح أن يُلجأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله ، ولا يقبل أيضا أن يقال عن ذرات التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ (وهو الآجر) .

وإذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدرى ، فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟

---

(١) ص ٩٦

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول فى وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم ، وبعضهم من أعداء الرسول ، فلو لم تكن الطيورُ طيوراً حقيقية ، والحجارةُ حجارةً حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد ويتهزها فرصة فى الكيد لمحمد والطعن عليه ، ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها[1] » .

وعلى هذا فالطير الأبابيل هى الطيور الحقيقية المعروفة لدى العرب ، ولعلها قاذفات للقنابل جاءت إلى هذا العالم قبل الأوان . لم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ، ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان .

٨

وقد عالج المؤلف فيما عالج ، مشكلة الفقر والتسول ، وجعل الزكاة وكفارة الذنوب والخطايا علاجاً لها ، وانتهى إلى دعوة الأغنياء إلى البذل والإحسان ، ودعوة الفقراء إلى الجد والعمل ارتفاعاً بنفسيتهم عن ذل السؤل ؛ ولكن ، كم كان بودى لو أنه أبانَ لنا رأى الإسلام فى (الضمان الاجتماعى) ضد الفقر والمرض والعجز والعوز واليتم و (الترمل) وما إليها ، وأوضح لنا ما إذا كان من الواجب انتشار هذا الضمان فى المملكة العربية السعودية ، والدول الإسلامية عامة ، وما هى الأسس الاسلامية الصحيحة التى يجب أن يبنى عليها .

ولكم كنتُ أود كذلك لو أن المؤلف حين عقد المقارنة بين يهود الأمس ويهود اليوم ، لو أنه أشار إلى ما يجب على المسلمين عمله إزاء هذه الشوكة

---

(١) ص ١٥ .

العتية فى قلب العروبة ، تلك هى دولة إسرائيل التى لم تعد (مزعومة) كما كانوا يقولون ، ولكنها أصبحت دولة قوية لا تعتمد على الختل والمكر والخديعة والمداهنة وحسب ، ولكنها تقوم على دعامتين أساسيتين من العلم والمال أولا وقبل كل شىء ، فما أكثر ما لديهم من مصانع تنتج فى الخفاء من أدوات الحرب والفناء ما الله به عليم ، وما يخشى منه على تهديد البلاد العربية جميعاً وغزوها بعد أن اقتطعت منها هذا الجزء الخصب النابض بالحياة .

أين زعماء المسلمين ؟ أين أغنياؤهم ؟ أين علماؤهم فى الذخيرة والسلاح ؟ أين مصانعهم التى تنتج القنابل والمدافع والدبابات ؟ ؟ أين أين ؟

لست أدرى إلى متى سيظل هذا الشرق الاسلامى المسكينُ عالة على الغرب حتى فى أدق الأشياء وأكثرها مساساً بحياته . . إلى متى سيبقى تحت رحمته فى وسائل الدفاع عن نفسه وحفظ كيانه والذود عن حياضه ! ! أين شوكة الاسلام ؟ أين عزة المؤمنين التى يقول فيها الله جل جلاله « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ؟ ألا ، إنه لا عزة للمؤمنين اليوم إن لم يكن لهم علم دنيوى نافع — بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها — بجانب علمهم الدينى ، وقوة فى العتاد والسلاح إلى جانب قوة الأخلاق تدفع عدو الله ، وتدرأ عنهم الشر والضير والظلم والبغى والاستعمار والطغيان ؟ ! .

وبعد فلا أريد أن أسترسل فى هذه الخواطر التى أثارها فى نفسى هذا الكتاب وحسبى أن أقول كما قال عميد الأدب العربى معالى الدكتور طه حسين باشا « إن خير الكتب عندى ما يثير فى نفسى الخواطر » .

وكل وحدة من هذه الخواطر خليقة بالدرس جديرة بالتفصيل ، وأكبر الظن أن مؤلفنا المفضال قد عقد لها فصولا خاصة فى كتبه الجديدة التى اعتزم إخراجها بعد هذا الكتاب .

٩

ثم ماذا ؟ ثم لم يبق إلا أن أترك القارىء الكريم يستمتع برحلة جميلة فى هذا السفر القيم كما استمتعت ، ويفيد منه كما أفدت ، وأية رحلة أحفل بالأنسة والإمتاع من أن يظل المرء حيناً من الزمان فى جو يشع بالإيمان وترفرف عليه روح الإسلام ، ويصافح فيه نفوس المؤمنين الخالدين ؛ فيأنس بما كانوا عليه من مثل سامية ، وشمائل عالية ، ويستخلص العبر والعظات من المقارنة بين الماضى والحاضر إلى غير ذلك من استنهاض للنفوس واستحثاث للهمم . . .

كل ذلك فى أسلوب تتجلى فيه لباقة العالم الأديب حين يعرض لموضوعات مهمة فيها شىء من التعقيد ، وشىء من الحرج ، وشىء من اختلاف الآراء ، يعرض لها بالتيسير والتقريب ، والتسهيل والتبسيط ؛ فإذا هى واضحة جلية فى عبارة بليغة قبست من بيان القرآن بياناً ومن روحه إيماناً ، وجرت بذلك إلى العقول والقلوب لتؤثر فيها أيما تأثير من أيسر طريق وأقرب سبيل !

ولم يبق بعد هذا إلا أن أسأل الله الكريم أن يعم به النفع جزاء ما بذل فيه مؤلفه من جهد ، وما يستكن فى سريرته من إخلاص ؛ وبقدر ماتنطوى عليه جوانحه وجوانح أمثاله من المسلمين من إيمان عميق وإحساس صادق وشعور قوى — أقوى ما يكون الشعور — بحاجة الأمة الإسلامية إلى البعث والأحياء والنهوض والإصلاح ، إنه سميع مجيب ، وهو الهادى سواء السبيل ؟

دار البعثات السعودية
بمصر
٧٠/١٢/٢٠
٥١/ ٩/٢٢

عبد الله عبد الجبار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أربعة عشر قرناً من الزمان منذ أشرقت الأرض بنور ربها، وانبعث الحق المبين فى أرجاء الجزيرة العربية، ونادى به النبى الأمى العربى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلوات الله وسلامه عليه، بين صخور مكة العاتية وأحجارها الصم الجلاميد، ووسط الظلمات المتكاثفة من أفن الرأى وفساد العقيدة وطغيان الأَثَرة وتحكم الأهواء والشهوات.

ولقد مرت هذه الدعوة الإسلامية فى طريقها الطويل بكثير من المتاعب، وتعرضت للأنواء المتقلبة والتيارات المتضاربة، وصادفها لفح الهجير وعنت الزمهرير وعسف الأعاصير، فكان لها من قوة الأصل ومتانة العود ورسوخ الأساس ما يمكن لها من الحياة، ويعينها على الصبر والثبات، ويمدها بالغذاء حتى تنجلى عنها ليالى المحن والشقاء، ثم يطالعها فى أعقاب ذلك فجر بهى السناء مشرق بالضياء..

وما من قطر أو مصر انسابت إليه تلك الدعوة الخالدة إلا وقد هيأ الله لها من يحفظها ويرعاها، ويدرأ عنها عواصف المحن وعوادىَ الزمن، بل يحمل المصباح لينير الطريق، ويعلن الكفاح ليفسح المجال، ولتزول العوائق والحواجز فيدخل الناس فى دين الله أفواجاً دون خوف من اضطهاد وفتنة، ويسود العدل والإنصاف بين العالمين، وتنتشر مبادىء الدين فى كل وقت وحين، وصدق الله العظيم «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

وحينما فتح الإسلام مصر كانت كالأرض النقية أصابها الغيث الوفير فقبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وظل المسلمون ينعمون أجيالا بين تلك الظلال الوارفة حتى أسس الأزهر فى القرن الرابع الهجرى بمدينة القاهرة[١]، فكان — ولا يزال — الكعبة الثانية للإسلام. والمنارة الهادية للأنام، يتلقى النور من منبعه كما يتلقى القمر ضوءه من الشمس، ويستقى الهدى من مشرعه كما يستقى البحر ماءه من السحاب، وغدا « منذ قرون عشرة موئل العلم والفلسفة والدين يحفظها ويدرسها ويفتح فى ميادينها . . . ويسجل آثاره متوناً وشروحاً وحواشى وتقارير، ويتركها للأجيال تقرأ فيها جهود الجبابرة الصابرين[٢] » .

وللأزهر الشريف رسالة سامية يطالب الدين أولى الأمر فى كل زمان بتحقيقها مهما وقفت الحواجز وعظمت التضحيات « فيجب أن يكون الأزهر فكرة وقيامة على العالم الإسلامى أو العالم كله يتولى أمره ويكمل نقصه . ويعد نفسه مسئولا أمام الله عن سلامته الروحية والمادية فيستبق رجاله إلى رعاية المسلمين فى أطراف المعمورة يقومون دينهم ودنياهم ولا يقفون عند حدود الوظيفة ورسومها التى تحبس جهودهم وتغل نفوسهم، وتفقدهم ما هم أهله من كرامة وزعامة تضعهم فى الطليعة أمام الناس جميعاً[٣] » .

ولقد أذن الله أن تتحقق هذه الأغراض أو الكثير منها فى هذا العصر الذى نعيش فيه، إذ أحس الأزهر أنه لا يصح أن يحبس مجهوده، وتغل جهوده، ويدور حول نفسه فى إطار ضيق الجوانب، ففتح بين أيدى أبنائه

---

(١) بناه جوهر الصقلى سنة ٣٦٠ هـ

(٢) من الكلمة التى كتبها صاحب العزة الأستاذ الكبير أحمد الشايب بك فى تقديم كتابنا « المولى فى العصر الأموى » .

(٣) من التقديم السابق للأستاذ الشايب بك .

ميادين العمل من كل جانب ، وحمّلهم الأمانة فنفروا سراعاً ، وخرجوا تباعاً وتخطوا حدود مصر إلى غيرها من الممالك العربية والإسلامية ، يساهمون فى تدعيم النهضات ، وتنمية الثقافات وتقوية أواصر العروبة والأخوة الإسلامية وها هى ذى بعثات الأزهر الثقافية تنهض للقيام بهذا الواجب الكريم فى السودان ، وفى سورية ولبنان والعراق والمملكة العربية السعودية والكويت وأريتريا وغيرها ، ولا يَضِنُّ الأزهر بأبنائه وعلمائه فى هذا السبيل ، حتى لقد بلغ عدد أعضاء البعثة إلى المملكة العربية السعودية وحدها أكثر من ثلاثين من علماء الأزهر الممتازين .

* * *

ولقد أشرق قلبى بالغبطة ، وفاضت نفسى بالسرور حينما صدر قرار الأزهر باختيارى عضواً فى البعثة الأزهرية إلى المملكة العربية السعودية ، وذلك لما تحتله هذه البلاد المقدسة من مكان كبير فى قلب كل مسلم وكل عربى ، ولما يتيحه ذلك لى من فرصة نادرة هى فرصة الكشف والاستطلاع للآثار الإسلامية الأولى فى أماكنها الحقيقية ومواقعها الأصيلة ، ولما ينطوى عليه هذا الاختيار من ثقة غالية وتقدير كريم ، ثم تضاعفت الغبطة والسرور حينما استقر بى المقام فى مكة المكرمة إلى جوار البيت العتيق وفى ظلال الحرم الآمن حيث أسند إلىّ التدريس فى المعهد العلمى السعودى[١] ، وفى معهد تحضير البعثات[٢] . ثم فى كلية الشريعة الإسلامية[٣] .

---

(١) معهد دينى فى مكة يكاد يتفق فى برامجه مع الأقسام الثانوية بالأزهر والمعاهد الدينية فى مصر .

(٢) معهد يتفق مع المدارس الثانوية فى مصر ويلحق المتخرجون فيه بالجامعات المصرية .

(٣) أنشأها منذ عامين فى مكة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل الجزيرة العربية لتخريج القضاة والمدرسين الوطنيين ، وزودها بوسائل التشجيع الأدبى والمادى ، =

ولا غرو أن واجب المبعوث أسمى وأجل من أن يقتصر على دروس تلقى بين جدران المدارس والمعاهد ، فذاك نطاق ضيق لا يقبله إلا العقل المريض ، وأفق محدود لا يقنع به إلا الطائر المهيض ، وإن منطق الإخلاص ليحتم على كل عالم أن يكون مرآة صافية لا يكدر صفحتها صدأ الإهمال ولا يشوهها غبار الأثرة والأنانية ، ونجماً لألاء يبدد ظلام الخفاء فى كل زمان ومكان ، وبلبلا غريداً يقع على كل غُصْنٍ ويسجع فى كل روض ، لا تقيده قيود ولا تقف دونه سدود ، بل يغدو ويروح من دوح إلى دوح ، ويتنقل فى مملكة القضاء كلما شاء وأينما شاء .

وفى مكة المكرمة مجال واسع ومتنفس رحب للعالم والأديب ، وإن جوها الروحى الجميل ليبعث فى النفوس الذكريات الخالدة ، فلا تلبث هذه الذكريات أن تنطلق من الجنان لكى تبرز للعيان صورة مشرقة ، وتجرى على اللسان لحناً جميلا يهز المشاعر وتصغى إليه القلوب قبل الآذان .

والحديث عن المجالات الأدبية فى مكة حديث تتسع أكنافه ، وتتشعب أطرافه لمن وقف على شعاب مكة وقفة الفاحص المتأمل لا وقفة الزائر العابر ، ولم يكتف بمظاهرها الواضحة بل نفذ إلى ما وراء الكهوف والمغاور ، بَيْدَ أننا سنختص بحديثنا فى هذا الكتاب بعض هذه المجالات وسنجتزىء الكلام آملين أن نفصل الحديث عنها وعن غيرها فى كتاب آخر اعتزمنا إصداره إن شاء الله تحت عنوان « الحجاز كما رأيته » ، سائلين الله أن يحقق آمالنا ، ويقينا شر الزلل والعثار .

= واختار لها الأساتذة الأكفاء من علماء الأزهر المدرسين بالكليات العالية ، ووضع لها فضيلة الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف السعودية من البرامج الدراسية ما يجعلها فى مستوى الكليات الأزهرية ، واختصها فضيلته بعناية فائقة فتولى عمادتها ولم تصرفه المشاغل الكثيرة عن مراقبتها بعين اليقظة والعدالة .

ولا غرو أن الإذاعة اللاسلكية السعودية من أهم هذه المجالات الأدبية ، فهى لسان فصيح ينطق بما لهذا القطر الشقيق من مجد عتيد وفضل تليد ، وهى منبر كريم يرتفع فيه صوت الحق فيتخطى الأودية والجبال ويجتاز القفار ويعبر البحار ، ويهتف فى أُذُنِ الحياة بما وصلت إليه هذه البلاد من نهضة وحياة ، وهى ميدان حُرٌّ يتلاقى فى رحابه الأساتذة الوطنيون والمصريون فيقومون بواجبهم فى سبيل العروبة والإسلام .

ولعل هذه الإذاعة — فيما أعلم — هى أول إذاعة فى العالم تسيطر عليها الروح الجدية ، وتنأى عن الهزل والعبث . وحسبك أنها لاتذيع شيئا من الغناء الرخيص أو الروايات الماجنة ، ولا يُسمع فيها صوت المرأة ، وإنما تقتصر برامجها على القرآن الكريم والأحاديث الدينية والعلمية والأدبية ، والتربوية والرياضية والصحية والروايات التاريخية والاجتماعية التى ترمى إلى غاية كريمة وهدف سليم ، وهى تذيع فوق برامجها العربية برامج بالأردية والملاوية ، وتعمل على إدخال برامج باللغة التركية .

وقد تبدو الإذاعة السعودية من أجل ذلك فى نظر الجمهرة من المستمعين جافة قاسية . إذ أن الكثير من الناس ينظر دائما إلى الإذاعات على أنها أداة تسلية وترويح عن النفوس قبل أن تكون مدرسة للتعليم والتهذيب ، وقد لاحظ السادة المشرفون على تلك الإذاعة هذه الظاهرة من المستمعين ، فجاهدوا جهاد الأبطال للتوفيق بين ما تفرضه تقاليد هذه البلاد وعاداتها المستمدة من الدين الحنيف ، وما يتطلبه السامع المثقل بالتكاليف والأعباء من بهجة وترويح وتخفيف . وأشهد بحق لقد خطوا فى سبيل النجاح خطوات رشيدة ، كان لها أثرها الطيب ، وسيكون لها عما قريب نتائجها المحمودة .

ويسرنى فى هذه المناسبة أن أذكر بمزيد من التقدير فضيلة الأستاذ

السيد محمد شطا مدير الإذاعة السعودية ، وأثنى كل الثناء على مجهوده وإخلاصه وأحيي أسرة الإذاعة تحية الإعجاب لاسيما الإخوة الأماثل أحمد الفاسى وحسن قرشى وطاهر زمخشرى وعبد الجليل أسعد وعبد الله المزروع وعبد الله المنيعى ومحسن باروم ، وأشكر لهم ما لقيتُ من تقديرهم الكريم ومعونتهم الصادقة التى طالما حفزتنى إلى العمل ، وشجعتنى على مواصلة الجهد دون سآمة أو ملل ، حتى لقد أذعت فى عامين دراسيين مايقرب من خمسين حديثاً سجّلت قرابة نصفها فى هذا الكتاب ، وأبقيت النصف الآخر إلى فرصة ثانية أرجو أن تكون قريبة إن شاء الله .

* * *

وندوة المسامرات الأدبية بمكة لها — كذلك — فى هذا السبيل فضل كبير ، فهى سوق علمية أدبية يقيمها المعهد العلمى السعودى ومدرسة تحضير البعثات عصر يوم الخميس من كل أسبوع ، وفيها يتلاقى طلاب المعهدين مجتمعين بأساتذتهم ، ويتلاقون أيضا بأقطاب الأدب وقادة الفكر وبالرأى العام المستنير ، فيعرض الطلاب ثمرة دراستهم ، ونتاج قرائحهم ، فى أسلوب أدبى ، ويتبارون فى ميدان الخطابة تبارى الفرسان . وقد يشترك معهم بعض الأساتذة والأدباء ، فيسكبون نصائحهم ، ويقدمون تجاربهم هدية سائغة لأبنائهم الطلاب فى جو علمى جميل يملأ النفس جلالاً وروعة .

ومن الحق علينا أن نعترف بما لهذه الندوة المباركة من آثار قوية فى النهوض بالروح الأدبية لدى الطلاب ، وتقوية الناحية الخطابية فيهم ، وحفزهم إلى التنافس الشريف الذى لاتشوهه الأنانية ، ولا يكدر صفاءه الغرور ، والذى يبنى ولا يهدم ، ويُعَمِّرُ ولا يُدَمِّر .

ومن الحق علينا — كذلك — أن نذكر بالثناء والتقدير رئيسها المربى

الفاضل الأستاذ عبد الله بغدادى ، فلقد كان لجهوده الموفقة ونشاطه الرائع وأدبه الجم وخُلُقِه الكريم الأثر البالغ فى النهوض بهذه الندوة ؛ حتى لقد لمعت فى سمائها نجوم لن يطول عليها الزمان حتى تمضى صُعُدًا لكى تشرق فى أوسع أفق وأسمى مكان ، ونذكر على سبيل المثال الطلاب الأدباء جميل ششه ، وعباس فائق غزاوى وعبد الله القرعاوى وهبد الرحمن المنصورى ومحمد سعيد خوجه ومحمد طاهر الفاسى ومصطفى عطار ويس العلاف . ونسأل الله أن يكتب لهم ولإخوانهم الحظ الباسم والمستقبل السعيد .

وما من مرة وقفت فى ندوة المسامرات خطيباً ، أو جلست لأستمع إلى خطبائها إلا ورجعت بالذاكرة إلى العهود القديمة بالحجاز ، فى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وتمثلت القبائل العربية وهى تتوافد فى مواكبها المهيبة إلى تلكم الأسواق الأدبية الرهيبة ، وكيف كان يحفل النَّدِىُّ ، ويعجُّ السامر ، وتهتز المنابر ، وتسيل بالفصاحة الحناجر ، وتشرق روائع البيان بين هذه الربوع والوديان.

أجَلْ ، أرجع بالذاكرة إلى تلك العهود القديمة ، ثم أعبر القرون وأتخطى السنين إلى يوم الناس هذا فيصفق القلب نشوة وطربا ، إذ أرى ذلك المجد الأدبى القديم الذى عفى عليه الإهمال ، وطمرته الرمال ، قد ابتدأ يرجع من جديد ، ويبزغ فى الأرجاء بإشراق سعيد .

ولقد سجل الأستاذ عبد الله بغدادى رئيس المسامرات الأدبية نشاط هذه الندوة فى مدى عام واحد فى كتاب أنيق سماه « ندوة المسامرات الأدبية » وقد أخرجته « دار النيل » للطباعة بمصر ، فجاء سفراً ممتعاً وسجلاً رائعاً ، يحتوى على طائفة من الشعر الشاعر ، والنثر الساحر ، وينطق بمجهود الشباب العربى السعودى فى ميدان الأدب العالى الرفيع . وبهذه المناسبة أشكر لرئيس المسامرات أن أشاد بجهودى المتواضعة ، وأعتقد أنه قد نظر إلىّ بعين الرضا

حيث عقد فصلاً خاصاً بى ، وجعل عنوانه « مبعوث ثقافى يؤدى رسالته » . ثم تحدث عن هذا المبعوث الثقافى حديثاً أملته عليه روحه الطيبة و إخلاصه وحسن تقديره .

و إنه لمن الصعب علىّ أن أثبت فى هذا الكتاب ما ألقيته من كلمات فى ندوة المسامرات . وذلك أنها كانت كلمات مرتجلة لم تمكث فى الذاكرة إلا حيناً يسيراً ثم انفلتت طائرة . بَيْدَ أن كلمة واحدة من تلك الكلمات كنت ألقيتها بين يدى حضرة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله الفيصل وكيل نائب جلالة الملك بالحجاز ووزير الصحة والداخلية ، وذلك فى حفل المسامرات الختامى لعام ١٣٦٩ هـ ، وقد طلبت منى هذه الكلمة بعد إلقائها فأثبت ما علق بذهنى منها . ونشرها رئيس المسامرات فى كتابه ، وأعدت بدورى نشرها فى هذا الكتاب .

* * *

ومجلة الحج « الغراء » التى تصدر بمكة هى كذلك مجال علمى وأدبى كبير ، وموطن إدارتها فى وزارة المالية ندوة أدبية تضم فى كثير من الأوقات علماء مكة الكتاب ، وكتابها العلماء . ولا غرو أن شخصية مديرها الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودى كان لها أثر واضح فى النهوض بهذه المجلة حتى لقد خطت فى زمن قصير خطوات واسعة جعلتها تسير جنباً إلى جنب مع كبريات المجلات الدينية فى مصر .

وقد حبّب إلىّ الكتابة فى هذه المجلة ما وجدته فى مديرها الجليل من حب للعلم والعلماء ، وتقدير كبير لرجال الأزهر الشريف ، وما يتحلى به من خلق كريم ، ونفس هادئة وصدر رحب وأفق واسع ، و إلمام كبير مع اهتمام أكبر بشئون العروبة والإسلام . وقد أثبتُّ فى هذا الكتاب كثيراً من

المقالات التى كتبتها فى هذه المجلة وأشرت إلى ذلك فى ذيول الصفحات .

* * *

وهذا الكتاب — كما سيراه القارىء — مجموعة من الخواطر المتنوعة ، وطائفة من بحوث ومقالات متفرقة كتبت فى مناسبات مختلفة ، لم أقصد فى كتابتها إلى الدراسة العميقة التى تحتم على القارىء أن يتزود بيقظة قوية ويعتصم بنشاط عقلى كبير ، بل راعيت فى كثير من الأحيان أن أبسط الكلام وأوضح مرماه ، وأوسّع مجراه كى ينحدر فى يسر وسهولة إلى الأذهان .

وقد قمت بطبع هذا الكتاب استجابة لرغبة إخواننا السعوديين الذين طلبوا إلىّ تسجيل هذه الكلمات بعد أن سمعوها فى الإذاعة السعودية ، أو فى ندوة المسامرات الأدبية ، أو قرءوها فى مجلة الحج . وكان أول من طلب إلىّ هذا العمل وحفزنى إليه الأخ الكريم الشاعر المطبوع الأستاذ طاهر زمخشرى والأخ الكريم المربى الفاضل الأستاذ عبد الله بغدادى ، والأخ الكريم العالم الأديب الأستاذ عبد الله المنيعى ، وإنى أشكر لهم الروح الطيبة التى تجلت فى مناسبات عديدة ، وأسأل الله لهم حسن المثوبة وأكرم الجزاء .

* * *

وبعد فإن النهضة القائمة بالمملكة العربية السعودية وعلى الأخص من الناحية الثقافية ترجع إلى مايسود هذه البلاد من الأمن الشامل والاستقرار الكامل الذى سما فوق الآمال ، وصار مضرب الأمثال . . والذى لا أبالغ إذا ماقلت إنه لا يوجد فى أية دولة من دول العالم ، وأساس هذا الأمن والاستقرار أنها تحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، فيُقتل القاتل وتُقطع يد السارق ، وتُقام الحدود الشرعية ويُراقَب تنفيذها فى حزم وصرامة ، ومن ثم انقطعت الفوضى والهمجية ، واتجه الناس إلى واجباتهم ، وتوثقت الروابط وقوى التعاون بين

المملكة السعودية وغيرها من الممالك ، وغدت البعثات التعليمية تتنقل فى أرجاء الجزيرة العربية تحت سماء صافية من الفتن والاضطرابات . وفى جو آمن مطمئن لا تسوده الأطماع الجاهلة والشهوات الباطلة ولا تعصف به النزوات الرُّعْن ، بل يسوده الرضى والقناعة والامتثال والطاعة ، ويشرق فيه القرآن الكريم دستوراً يضىء طريق الخير ويهدى للتى هى أقوم .

وإنه لمن الحق على كل دولة مسلمة أن يكون لها فى ذلك عبرة وتبصرة فنهج هذا النهج الصالح . وتقتدى بغيرها فى حسناتها وتتخذ من مبادىء الدين الحنيف دستوراً يعصمها من الزيغ والضلال ويأخذ بيدها إلى شاطىء الخير والنجاة .

والله نسأل أن يمدنا بعونه ويوفقنا لما يحبه ويرضاه ؟

القاهرة فى { ذى الحجة ١٣٧٠ هـ / سبتمبر ١٩٥١ م

محمد الطيب النجار

للبيت رب يحميه (١)

لاهم أن العبـــد يم ... نع رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصلي ... ب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبنَّ صـــليبهم ... ومحالهم أبداً محـالك
هم جرَّدوا لك جمعهم ... والفيل كى يسبوا عيالك
إن كنت تاركهم وقبـ ... ـلتنا فأمر ما بدا لك

بهذا الشعر العاطفى الرائع توجَّه عبد المطلب بن هاشم إلى الله مع نفر من قريش ، وقد تعلقوا بحلقة الكعبة وأستارها فى ضراعة الخائف الوجِل و إنابة العائذ المستغيث حينما فاجأهم الجيش الحبشى يقودهُ أبرهة الأشرم ؛ ببأسه الشديد ، وعدته القوية ، وعدده العديد .!!

وكأنما قد رأى عبد المطلب أن لاقِبل له بهذه القوة الهائلة المفاجئة ، فلجأ إلى البيت العتيق يتعلق بأستاره ، ويتضرَّع إلى الله فى جواره ، ومن ورائه قريش كلها ؛ بل قبائل العرب فى مكة وما يحيط بها تبكى كل البكاء ، وتجأر إلى الله بالشكوى والدعاء . !

أفهل كان العرب فى مثل هذه المحنة القاسية يلجأون إلى الله الواحد القهار ؟.أم يلجأون إلى الآلهة المتعددة من الأصنام ، والأوثان ، والأحجار ؟!.

لقد حدثنا التاريخ عنهم أنهم كانوا يفيئون إلى الأصنام والأوثان كلما فاجأتهم النوازل ، أو نزلت بساحتهم الكوارث ، يلتمسون عندها النصر

---

(١) ألقيت هذه الكلمة بالإذاعة السعودية ونشرتها مجلة الحج فى رجب سنة ١٣٦٩هـ

والمعونة ، ويطلبون فى ظلالها الخير والبركة ، ويهيبون بها أن تدفع الضُّرَّ عنهم ، وأن تباعد بينهم وبين الويلات والأخطار .

نعم لقد حدثنا التاريخ بذلك ولكن ليس معنى هذا أنهم يعتقدون أن الأصنام والأوثان آلهة تضر وتنفع ، وتبصر وتسمع ، وتعطى وتمنع ، وتحيى وتميت ، إنما كانوا يعبدونها على أنها واسطة بينهم وبين الله تقربهم إليه ، وتشفع لهم ، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المعنى فى وضوح وصراحة فقال حكاية عما يقولون . . « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ثم قال فى آية أخرى « ولئن سألتهم من خلق السمواتِ والأرضَ ليَقُولُنَّ الله » ثم أخبر عنهم أنهم فى وقت الشدة والبلاء لا بد أن ينسوا أصنامهم ثم لايدعون إلا الله فقال « قل أرأيتكم إن أتاكم عذابُ الله أو أتتكمُ السَّاعةُ أغيرَ الله تدعونَ إن كنتم صَادقين ، بل إياه تدعون فيكشف ماتَدْعِون إليه إن شاء وَتَنْسَوْنَ ما تشركون » .

وكان جيش الحبشة قد أقبل من اليمن التى كانت خاضعة للنفوذ الحبشى فى ذلك الأوان ، فأشرف على مكة بعد أن تخطى إليها التلال والنجاد ، والهضاب والوهاد ، وبعد أن اجتاز فى سبيله الصخور القاسية والصحراء المترامية ، وبعد أن كاد يضل فى شعاب الجزيرة الشائكة ومسالكها المشتبكة ، واستقر بمكان قريب من مكة يقال له المُغَمَّس ، وأرسل القائد الحبشى رسولا من قبله إلى مكة يدعى حناطة الحميرى ، فقال له : سل عن سيد اهل هذا البلاد وشريفها ، ثم قل إن الملك لم يأت لحربكم وإنما جاء لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة له فى دمائكم . . فإن هو لم يرد الحرب فأت إلىَّ به ، . فلما دخل حناطةُ مكةَ سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فأخبره بما أمره به أبرهة فقال له عبد المطلب

والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك منه طاقة ؛ هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وأن يخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ، فقال حناطة فانطلق معى إليه فإنه قدأمرنى بذلك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر ووقف بباب أبرهة ، فقيل لأبرهة : إن عبد المطلب ببابك ، فقال : من هو عبد المطلب ؟ قيل : إنه سيد قريش وصاحب عيش مكة ، وهو الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رءوس الجبال . فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب وسيما جميلا ، شديد الهيبة والوقار ، فلما رآه أبرهة أجَلَّهُ وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : سله عن حاجته ، فسأله الترجمان ، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى : فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه :قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل و إن للبيت ربًّا سيمنعه ويحميه..! فرد أبرهة قائلا . ما كان ليمتنع منى ، فأجابه عبد المطلب: أنت وذاك . فرد أبرهة على عبد المطلب المائتى بعير التى أصابها ، وانطلق عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة فخرجوا جميعاً يتحرزون فى شعف الجبال والشعاب وينتظرون ما الله صانع بذلك الظالم الطاغية ، ويتساءلون هل سيتحقق للأحباش أملهم ، أم أنهم ستقع عليهم الواقعة ، وتصيبهم بما صنعوا قارعة . . ! !

وأصبح الصباح وتحرك جيش الأحباش مُدِلاً بعظمته وكبريائه ؛ تتقدمه الفيلة بشكلها المهيب المخيف الذى لم تألفه العرب فى حروبها ، وكان عددها

ثلاثة عشر فيلا توجهت جميعها فى طريقها إلى الكعبة ماعدا كبيراً لهم فإنه ظل جامداً فى مكانه ؛ فإذا وجهوه إلى اليمين أسرع وهرول ، وإذا وجهوه إلى الكعبة وقف ولم يتحول ..!! وكأن الله قد ألهم ذلك الحيوان الأعجم بماتحدثه الحدثان ، وما ينتظر ذلك الجيش من خسف ونكال وهوان . .

وما كان مثل هذا الجيش القوى ليغلب من ضعف أو قلة لولا قدرة القوىّ القاهر التى تجلت فى تلك الآية الكبرى الباقية على الدهر ، إذ أرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجرٌ فى منقاره وحجران فى رجليه أمثالُ الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت ، وذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاؤا ، ويسألون عن الطريق إلى اليمن ، فقال أعرابى رآهم فى هذه الحيرة بعد ما أنزل الله عليهم من نقمته .

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وظلوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأصيب ابرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة خرجت وراءها المدة والقيح والدم الكثير حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يقولون . . ! !

وإلى هذا الحادث العجيب يشير الله تعالى بقوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ »

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة أن بعض المفسرين من علماء هذا القرن قد جانب الصواب فى تفسيره للطير الأبابيل بأنها الرياح المتجمعة حملت إليهم

ميكروب الجدرى ففتك بهم ، وفى قوله أن الحجارة من السجيل هى ذرات التراب التى حملت الميكروب . وذلك لأنه لم يُعْهد فى لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أى جماعات من الطير ، ولا ينبغى أن يقال ذلك إلا بطريق مجازي بعيد ، ولا يصح أن يُلجأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله ولا يقبل أيضاً أن يقال عن ذرات التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ (وهو الآجر) .

و إذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟ .

و إذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول فى وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم ، و بعضهم من أعداء الرسول ، فلو لم تكن الطيورُ طيوراً حقيقية والحجارةُ حجارةً حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد ، و يتهزها فرصة فى الكيد لمحمد والطعن عليه ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها ولا يجرؤ أحد على إنكارها . ! !

و بعد فقد رفع إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام قواعد البيت الحرام ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فأصبح منذ ذلك الوقت هو القبلة الجامعة ، والمنارة الساطعة ، ولقد مرت حقبة من الزمن على هذا البيت الكريم خفت فيها ذكر الرحمن ، وارتفع صوت الشيطان ، وعُبدت الأصنام

والأوثان ، ولكن ظل البيت العتيق صامداً لتلك الفتن الجامحة ، وهذه الأعاصير الجائحة ، حتى انجلى ليل المحنة الحالك ، وأشرق على الإنسانية نور الإسلام الوضاء ، فانكشفت أستار الزيغ والبهتان ، وارتفع ذكر الرحمن ، وخنس صوت الشيطان ، وعاد البيت من جديد منارة ساطعة تؤنس المستوحش الحائر وتهدى الضال السادر ، وسيظل إن شاء الله مصدر الخير والنور إلى يوم القيامة ، فللحق قوة تؤيده ، وللدين إلٰه يرعاه ، وللبيت رب يحميه .

الوازع الدّيني (١)

حينما تشرق بشاشة الإيمان فى القلوب ، وتسرى حلاوته فى النفوس مسرى الدم فى الجسم ، وتظهر آثار ذلك الإيمان فى أعمال الإنسان طاعة وبرًّا ومعروفاً وخيراً ، وخضوعاً لله وإنابة ، وطمأنينة واستجابة ، فى هذه الأوقات التى تعطرت بذكر الله وتوحيده ، وتقديسه وتمجيده ، يحاول الشيطان أحياناً أن يتلمس فراغاً يدخل منه إلى عقول الناس كى يصرفهم عما هم فيه من الخير والهداية ، ولكنه لا يلبث أن يسمع صوتاً من الأعماق يدوى فى الآفاق ، نذيراً لذلك الشيطان بالتدمير ، والطرد واللعنة وسوء المصير ، وحينئذ يولى الشيطان الإدبار ، ويرتد خاسئاً وهو حسير . ! !

وحينما يمسُّ بعضَ الناس طائفٌ من الشيطان فيحومون حول الحمى ، وتبدو المعاصى أمامهم لابسةً ثوب الفتنة القشيب ، متخذةً كل وسائل الإغراء والترغيب ، كى تلقيهم بين أحضانها ، وتوقعهم فى شراكها ، فى هذه اللحظات الرهيبة قد يحس الإنسان بقوة خفية تصارع قوى الشر الباغية ، وتكبح جماح النفس العاتية ، وتعيذها بالله من ذلك الزيغ والضلال .

وحينما تنخدع النفوس بالشهوات المغرية ، وتنحدر إلى الآثام المردية ، وتقع فريسة للأباطيل والمنكرات ، وتحيط بها ظلمات من المعاصى فوق ظلمات . فى تلك الساعات العصيبة ، ووسط هذا الشر المتكاثف ، قد يتراءى لدى السارين شعاع ساطع ، يكشف لهم ذلك الطريق الملتوى الخادع ، وينير أمامهم السبيل القاصد القويم .

---

(١) بالإذاعة السعودية ١٣٧٠ هـ

ذلكم الصوت القوى الذى ينذر الشيطان بالتدمير ، وتلكم القوة الخفية التى تصارع قوى الشر ، وذلكم الشعاع الساطع الذى يكشف طريق الفتنة الخادع . إنما هو الوازع الدينى .

فالوازع الدينى هو نتيجة الإسلام ، وثمرة الإيمان ، وهذه الثمرة لا تنضج إلا إذا هيئت لها التربة الصالحة للإنبات ، والغذاء الذى يمدها بالحياة . وإذا كانت الأرض تختلف معادنها باختلاف الجهات والطبقات فكذلك النفوس تختلف طبائعها باختلاف البيئة والعادات وما يحيط بها من سائر المؤثرات ، وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا الاختلاف فى طبائع الناس فقال « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكان منها نقيةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير ، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقَوْا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هى قيعانٌ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فَقُهَ فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعَلِم وعلّم ، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذى أرسلت به » .

وإنما يتهيأ السبيل لتكوين الوازع الدينى ، إذا ما نشأ الطفل منذ نعومة أظفاره بعيداً عن عناصر الشر والفساد التى تعكر نقاء النفس وتكدر صفاءها ، ثم أحيط بعد ذلك بالبيئة الصالحة والجو الملائم . واكتملت له أسباب العناية والرعاية ، حينئذ ينزل الإيمان على قلبه فيحييه ، وينبت الوازع الدينى فيه ، ثم لا يزال ذلك النبتُ ينمو ويترعرع حتى يكتمل نضوجه ويستوى على سوقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وإذا ما اكتمل نضوج الوازع الدينى لدى إنسان ، فإنه يقف سداً منيعاً أمام الشهوات ، وحصناً حصيناً يقيه شر الزلل والعثرات ، وهؤلاء الذين

اكتمل الوازع الدينى لديهم هم المفلحون الذى تحدث الله عنهم فقال : « قد أفلحَ المؤمنونَ الذين هم فى صلاتهم خاشعونَ ، والذينَ هم عن اللغو معرضونَ ، والذينَ هم للزكاة فاعلونَ ، والذين هم لفروجهم حافظونَ ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » . وهم المتقون الذين قال الله عنهم : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون» . وهم عباد الله الذين قال الله عنهم للشيطان : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » . وهم الأبرار الذين وعدهم الله بالخير والنعيم والرضوان الكبير فقال : « إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيقٍ مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

* * *

وقد يكون الوازع الدينى موجوداً لدى بعض الناس ولكن تحيط به بيئة فاسدة وجو ملوث موبوء . وحينئذ تقوم حرب عنيفة بين ذلك الوازع الدينى ، وبين ما يحيط به من شر وفساد ، وينشأ صراع شديد بين الخير الذى تنطوى عليه النفس وبين الشر الذى يحيط بها من الخارج ، وربما طال أمد هذا الصراع واستعر أواره ، وتفاقمت أخطاره ، وحينئذ يتظاهر الوازع الدينى بالانكسار ، ويتوارى مؤقتاً عن الأنظار ، ولكنه يكمن فى مكان آخر بعيد عن منطقة الشعور ، وقد ينام الوازع الدينى فى تلك المنطقة نوماً عميقاً ، ويحاول أن يستجم ويستريح ، وينفض ما علق به من غبار تلك الحرب وأوزارها ، ولكنه مهما طال نومه لا بد أن يستيقظ ، وحينئذ تكون يقظته قوية رائعة تدمر ما صنع الشيطان من عقبات ، وتبنى ما هدم من طاعات وأعمال صالحات فيرجع الحق إلى نصابه ، ويعود المذنب إلى ربه تائباً خاشعاً ، منيباً خاضعاً ،

فيفتح الله له أبواب رحمته وغفرانه ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » ، « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما » .

* * *

ومظاهر العبادة والطاعة ليست آيةً على وجود الوازع الدينى ، فالوازع الدينى معنى من المعانى الكريمة يعلمه الله فى قلوب الناس ، ويُحِسُّه الإنسان فى نفسه دون غيره ، وربما تظاهر إنسان بالإسلام فصلى وصام وأقام شعائر الدين ، ونفسه تنطوى على شر مكين ، وضعف بل ضلال فى العقيدة واليقين وهؤلاء هم المنافقون الذين توعدهم الله بالويل والثبور وعذاب السعير حيث يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » .

فمن الحق إذن على العلماء ورجال الدين أن يوجهوا اهتمامهم نحو تربية الوازع الدينى فى نفوس الأفراد ، وإن أنسب الأوقات لذلك مرحلة الطفولة ففيها يكون الإنسان صفحة بيضاء يكتب المربى فيها ما يشاء ، وفيها يكون الإنسان عجينة لينة إن وجهت لها العناية برزت فى صورة جميلة حسناء . . وكما قال القائل :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخُشُب

و بعد فإن الرجل راعٍ فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، فليحرص كلٌّ منكم على تكوين الوازع الدينى لدى أهله وعشيرته ، و إن بين أيديكم — بحمد الله — النور المبين الذى لن تضلوا ما تمسكتم بهداه ، وسرتم على ضوئه وسناه ، كتاب الله وسنة رسوله .

فى غار حراء (١)

حياة التأمل فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله فى هذه الدنيا من عجائب وأودع بين جنباتها من أسرار وغرائب ، تلكم هى الحياة الحية التى تصل بالكثير من العقلاء إلى نتيجة حتمية لا غموض فيها ولا التواء ، وتضع أيديهم على حقيقة منطقية لا شك فيها ولا مراء ، وتجعلهم يهتفون من أعماق قلوبهم (إن الأثر يدل على المؤثر والصنعة تستلزم وجود الصانع ، ولا بد لهذا الوجود من خالق معبود واجب الوجود) .

وقد لجأ العقلاء من الناس إلى التأمل والتفكر حينما اصطدموا بالأباطيل والخرافات التى كانت سائدة فى عصورهم فأحسوا أن هناك سرًا قويًا يكمن وراء هذه الكائنات بما تنطوى عليه من نظام سليم وتنسيق حكيم . وهذا السر القوى هو الذى يحرك العالم ويدير دفته ويملك زمامه ويسيره على هذا الوضع الدقيق (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) ، وهذا السر القوى هو الذى يراه الإنسان فى الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وفى الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، وفى الرياح العاصفة والرعود القاصفه . وفى النسيم إذا سرى والماء إذا جرى ، وفى النبت إذا ترعرع والثمر إذا أينع ، وفى الإبل وكيف خلقت ، والسماء وكيف رفعت ، والجبال وكيف نصبت ، والأرض وكيف سطحت ، وفى الحىِّ يخرج من الميت والميت يخرج من الحى ، وفى الماء المهين يستقر فى ظلمة الرحم إلى أمد معلوم ثم يصير إلى بشر سوى .

---

(١) بالإذاعة السعودية فى ١٧/٣/١٣٧٠ هـ

ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من أولئكم النفر القلائل الذين فروا من ضلال العقيدة وأفن الرأى ، وضعف الحجة وظلام المحجة ، إلى حيث يلتمس الحقيقة ، ويستضىء بنور اليقين والاطمئنان . وقد لجأ إلى العبادة عن طريق التأمل والتفكر حينما وضح له أن مكة قد أحاطت بها ظلمات الشرك والضلال ، وغرقت إلى الأذقان فى عبادة الأوثان والأصنام ، وأن البيت العتيق الذى هو موضع الطهر والقداسة لدى العرب أجمعين ، لا ينبغى أن تهفو له قلوب العقلاء مادام محاطاً بهذه الأحجار التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، وما دام السفهاء من الناس يلتمسون الخير والبركة فى ظل تلك الأحجار ويعتقدون أنها تشفع لدى الله فتيسر على الفقير ، وتهب الصحة للضرير ، وتفك العانى الأسير ، ويرونها الملاذ الآمن فيلجأون إليها فى الشدائد والكروب ، ويستنصرون بها إذا حاقت بهم الخطوب .

أجل كان محمد صلوات الله وسلامه عليه — وهو الذى صنعه الله على عينه ، ووهبه رجحان العقل . وسداد الرأى ونفاذ البصيرة — ينظر إلى الملأ من قريش فيعجب كل العجب حينما يراهم — وفيهم أفذاذ الرجال الذين صقلتهم التجارب والحوادث وعلمتهم الحياة كيف تكون الفراسة الصادقة والنظر البعيد — ولكنهم على الرغم من ذلك كله يعكفون على أصنام لهم ، ولئن سألتهم لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ؟ فإنهم يتشبثون بمنطق زائف كليل . وحجة داحضة عمياء ، ويقولون : وجدنا آباءنا لها عابدين .

وكان من الطبيعى أن يضيق محمد بهذا الجو الخانق وينفر من هذه البيئة الفاسدة ويلتمس له من هذا الضيق فرجا ومخرجا .. وإذن فإلى أين المصير ؟. وكيف يكون المخرج من هذا الفساد المستحكم والشر المستطير ؟

* * *

على بعد ساعة واحدة من مكة المكرمة بالسير على الأقدام ، وعلى يسار الذاهب إلى منى ، تمتد سلسلة من الجبال المتلاصقة والآكام المشتبكة المتلاحقة وفى وسط هذه الجبال والآكام جبل أوحد يلوح كأنه الفرقد ، ويطل على تلك الفيافى الشاسعة والجبال الفارعة كأنه المنارة الساطعة ، ويمتد بقمته العالية فى الفضاء حتى ليكاد يطاول السماء ويناطح الجوزاء ، ذلكم هو الجبل الأشم الخالد على الزمن جبل حراء .

وقد تطلع محمد قبيل البعثة النبوية إلى هذه القمة العالية حينما رأى قريشاً قد هوت إلى الحضيض وانحدرت فى عبادتها إلى الدرك الأسفل ، فسما هو إلى هذا المكان ، وكان يخلو به كل عام فى شهر رمضان . أجل كان يخلو بغار فى أعلى هذا الجبل الأشم ، وهو كهف غريب جعله الله على وضع عجيب يأخذ فيه الإنسان راحته الكاملة ، وتنطلق فيه الروح من أسر الماديات وعقال الشهوات إلى حيث تسمو إلى العلياء وتسبح فى ملكوت الأرض والسماء ، فبابه يتسع لدخول الشخص الواحد وهو قائم ، وقد غطى سقفه بصخور مائلة ولذا كان وسطه أعلى من جانبيه ويستطيع اثنان متجاوران أن يصليا فيه براحة تامة ، ومساحته من الداخل تسمح بنوم ثلاثة من الرجال متجاورين . .

وقد أسعدنى الحظ بالرقى إلى هذا الغار فى رفقة من الأصدقاء الأخيار وكلهم من الشباب الممتلىء بالقوة والفتوة فمكثنا فى الصعود إليه ساعة كاملة استرحنا خلالها مرتين قصيرتين . ولولا دافع قوى من الإيمان ، وشوق أقوى لرؤية أول مكان نزل فيه القرآن ، لتحطمت قوتنا أمام الصخور القاسية . وتضاءلت بين يدى تلكم الأحجار العاتية ، ولما استطاع أحد منا أن يواصل السير والصعود على هذا المرتقى الوعر الشديد .

* * *

ولـكن عند الصباح يحمد القوم السرى ، وحينما تتحقق الآمال تضيع المتاعب ، وتنسى الآلام والمصاعب ، ولقد نسينا ما لقينا من نصب ومشقة حينما انتهينا بحمد الله وتوفيقه إلى الغار ، وأشرقت علينا من خلاله الأنوار ، وغمرتنا موجات متلاحقة من البشر والسرور . وطاف بنا أشراق من صفاء النفس وسمو الروح حتى لقد ذهلنا عن أنفسنا وخيل إلينا أن الأجسام والأشباح قد استبدلت بأطياف وأرواح . وأن أجسادنا لم يعد لها ثقل مادى . وأن فى استطاعتنا أن نُحلِّق فى يسر وسهولة إلى العالم العلوى ، ولقد تراءى بين أيدينا — إذ ذاك — سجل الزمن وكتاب الأيام فقلبنا صفحاته إلى الوراء أربعة عشر قرناً من الزمان إلا قليلا حيث وقفنا عند صفحة خالدة تشع بالأنوار فى تاريخ هذا الغار .

ولعل الشاعر الحجازى الأستاذ السيد احمد العربى قد عبر عما تجيش به نفوسنا جميعاً فى قصيدته الرائعة عن غار حراء ، وهى القصيدة التى يقول فيها :

هذا حراء سائلوه يُجِبْـكُمْ ... فلعله سـفر من الأسـفار
واستلهموه مواقف الوحى التى ... شع الهدى منها على الأقطار
وسلوه ماذا قد أقل من البطو ... لة والحجى أعظم به من غار
أخلق بغار حراء أن يزهى على ال ... أهـرام والإيوان والآثار
كم بين صاحبه و بين بناتها ... من فارقٍ أربى على الأقدار
شتان بين محرر الأقوام وال ... مستعبدين سلائل الأحرار

* * *

إلى هذا المـكان الذى يشق العنان كان يصعد محمد بن عبد الله قبيل بلوغه الأربعين . وكان يحمل معه من الماء والطعام ما يكفيه لقضاء شهر رمضان من كل عام ، و بين تلك الصخور والرجام ، وفى هذا الصمت العميق ومن خلال

تلك الكرة الضيقة ، كان يطل محمد على الدنيا بأسرها فيطالع عظمة الكون ونظامه ودقته وإحكامه ، ثم ينظر مع ذلك إلى أهل مكة وما حولها فيراهم فى الغى سادرين ، وللأصنام والأوثان ساجدين ، فيستولى على نفسه الضيق والألم ويتمنى أن لو جاء الحق الصادق الذى تسكن له النفوس وتطمئن به القلوب ، وتنجاب أمامه الغياهب والظلمات .

وحينما أراد الله أن يعلى كلمته ويتم على العالمين نعمته ، أَذِنَ للحق بالظهور لكى يخرج الناس من الظلمات إلى النور فجاء جبريل الأمين إلى محمد الأمين ، وقد بلغ أشده وبلغ الأربعين ، ودخل عليه الغار فضمه إليه ضمة شديدة حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له اقرأ . فأجابه الرسول : ما أنا بقارىء ؟ وكرر جبريل هذا العمل والقول ثلاث مرات والرسول يجيبه بنفس الجواب فقال له جبريل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

وبعد فقد ابتدأت دعوة الحق نوراً أضاء فى غار تقاس مساحته بالأشبار ، ولكن لم يلبث هذا النور إلا قليلا حتى ملأ الأقطار والأمصار ، وتلكم عناية الله وذلك فضل الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

مثل رائعة من الإيمان (١)

يعى التاريخ الإسلامى كثيراً من الذكريات المجيدة ، ويضم كتابه العظيم صفحات مشرقة بالبطولة ، عطرة بالفداء والتضحية ، مزدهرة بالإيمان والوفاء ، وإنه ليطيب للنفس أن تتمثل أشباح هذه الذكريات ، وأن تستخرج من أطواء القرون تلكم الأحداث الخالدات ، وأن تتلمس فى ذلك مواطن العبرة والعظة ، ولا غرو فمن العقل أن يتأسى الإنسان بغيره ، ويضم إلى تجاربه تجارب الماضين ، حتى يكون له من وراء ذلك عدة قوية يقاوم بها الشدائد ، ونور وضاء يؤنسه ويهديه فى ظلمات الحيرة ، ويأخذ بيده إلى الحق وإلى الطريق المستقيم .

وسنقف اليوم عند صفحة خالدة كتبها نفر من المسلمين الأولين الذين تزودوا بخير الزاد ، وجاهدوا فى الله حق الجهاد ، حتى لقد أثنى الله عز وجل على جهادهم الكريم فقال فى محكم كتابه : (ومنَ الناس منْ يشرى نفسهُ ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد) .

أولئك هم أبطال الرجيع ، وهم مرثدين أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت وعبد الله بن طارق ، وزيد بن الدُّثِنَّة ، وخُبَيب بن عدى ، ستة نفر كرام من أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لهم فى تاريخ الإسلام بلاء أى بلاء ، وفى ميدان التضحية والاستشهاد صفحة ناصعة بيضاء ؛ وذلك أن قوما ينتسبون إلى بنى الهون بن خزيمة بن مدركة وكانوا يسكنون بالحجاز بين مكة والطائف جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) نشرت بمجلة الحج فى جمادى الأولى ١٣٧٠

سنة ثلاث من الهجرة ، فقالوا يا رسول الله ، إن فينا إسلاما فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ، وقد استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لأنه لم يكن يعلم الغيب ، ولم يطلعه الله على ما تنطوى عليهم قلوبهم من غدر وخيانة وكفر وضلال ، وقد كان الرسول شديد الحرص على نشر الإسلام وإعلاء كلمته ، وظن أن هذا الوفد قد جاء يلتمس النور ويبتغى الخير فلم يضن عليهم بذلك — وما هو فى الخير بضنين — وبعث معهم هؤلاء النفر الستة . وأمر عليهم مَرْثد بن أبى مرثد الغنوى .

***

وخرج القوم من المدينة يضربون فى البيداء المترامية ، وهم مؤتلفون فى الظاهر ولكنهم فى حقيقة الأمر فئتان ، فئة مؤمنة وأخرى كافرة ، حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز تحرك الغدر الكامن فى نفوس الكفار المنافقين فاستصرخوا عليهم هُذَيْلًا ، ولم يرع المسلمين الستة وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا ، ولكن هذيلا قالت لهم أنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ؛ وحينئذ نظر المسلمون بعضهم إلى بعض وأدركوا ما يبيت أولئك الكفار لهم من الشر وفهموا ما ينطوى عليه هذا القول من الخديعة والمكر ، وما ينذرهم من الويلات والأخطار . . فماذا هم بإزاء ذلك فاعلون ؟ . .

يا لله لروعة الحق وعظمة الإيمان . ! ! إن النفس المؤمنة المطمئنة لتعرف جيدا قول الله تعالى (وما كانَ لنفسٍ أنْ تموتَ إلاَّ بإذن الله كتاباً مؤجلا) وقوله سبحانه فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن

يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما) وأن النفس المؤمنة المطمئنة لتتمثَّلُ دائما بما ينطوى عليه قول القائل :

الحرُّ لا يموت إلا مره والموت أحلى من حياة مره

وهى لذلك لا تهنأ بالحياة إلا فى ظل العزة الإسلامية ؛ وترى الحياة بدونها موتاً وهلاكا بل أقل من الموت والهلاك . .

ولقد أشرقت بشاشة الإيمان فى نفوس أولئكم الأبطال فحملوا سيوفهم وقاموا للقتال ، وقالوا لا نقبل من مشرك عقدا ولا عهدا أبدا ، وأخذ عاصم ابن ثابت يرفع عقيرته ويقول :

ما علتى وأنا جلد نابل الموت حق والحياة باطل
وكل ما شاء الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل

إلى أن يقول . .

إن لم أقاتلكم فأمى هابل

ثم قاتلوا القوم حتى قتل عاصم وقتل صاحباه مرثد بن أبى مرثد وخالد ابن البكير ، وصعدت أرواح الشهداء الثلاثة إلى بارئها تهتف بالعزة الإسلامية وترتل فى مسمع الأيام نشيد الإيمان والإسلام

* * *

واستسلم الثلاثة الباقون ، وما كان استسلامهم عن خور فى العزيمة أو ضعف فى العقيدة أو خوف من الموت ؛ ولكنه استسلام الليث الهصور وقع فى قبضة الغالب ، وأطبقت عليه القوة الطاغية من كل جانب .

وغلل هؤلاء الثلاثة الأبرار بقيد الإسار وسارت بهم هذيل إلى مكة لتبيعهم فيها . فلما كانوا فى بعض الطريق انتزع عبد الله بن طارق أحد المسلمين الثلاثة يده من غل الأسر ثم أخذ سيفه ؛ فاستأخر عنه القوم وأخذوا

يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه ، ورأى أخواه الباقيان زيد بن الدثنة وخبيب ابن عدى عظمة استشهاد أخيهما فتمنيا لو ينتزعان القيود ويحطمان الأغلال لكى يلحقا به إلى هذا المصير والمآل .

يقول ابن هشام « فقدموا بهما إلى مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة » .

* * *

« فأما زيد بن الدِّثِنَّة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم وأخرجوه من الحرم ليقتلوه واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل ، أنشدك الله يازيد أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هوفيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى . فقال أبوسفيان وقد تملكه العجب ، ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .. !! ثم قُتل زيد فذهب شهيد وفائه وإخلاصه وحبه لله ورسوله .

فأى عظمة نفسية تنطوى عليها تلك النفس المؤمنة التى تستقبل الموت فى سبيل الله بابتسامة الرضى والطمأنينة ، والتى لو خيرت لاختارت القتل على ألا يصاب الرسول صلوات الله عليه بشوكة تؤذيه ؟ إنها التربية الإسلامية التى أسست على قوله تعالى « قُلْ إن كان آباؤكمْ وأبناؤكمْ وإخوانكمْ وأزواجكمْ وعشيرتكمْ وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادَها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسُوله وجهادٍ فى سبيله فتربَّصُوا حتى يأتىَ الله بأمره » .. وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين » .

وأما خبيب بن عدى فابتاعه حجير بن أبى إهاب لعقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه ، فحبسوه حينا حتى انقضت الأشهر الحرم . ثم خرجوا به التنعيم ليصلبوه ، وفيما يروى عنه أنه قال حينما بلغه أن القوم قد أجمعوا لصلبه .

لقد جمع الأحزاب حولى وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد ... على لأنى فى وثاقٍ بمضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
ولست بمبد للعدو تخشعاً ... ولا جزعاً إنى إلى مرجعى (١)

وحينما جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا . . قالوا دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . . ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا . ثم قال اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ؛ ولا تغادر منهم أحدا .

وكانت هذه آخر كلمات فاضت بعدها روحه تسجل الخزى واللعنة على هؤلاء الطغاة الظالمين . . أجل كانت آخر كلمات تلفظ بها خبيب فكانت صرخة الحق فى وجه الباطل ؛ بل كانت دعوة المظلوم صعدت إلى الله لم يصدها

---

(١) ذكرت بعض المراجع أن هذه الأبيات ليست من شعر خبيب ، ولكنها قيلت تصويراً لحاله . ومهما يكن من شىء فإنها تصوير صادق لما تنطوى عليه نفس خبيب من شجاعة وإيمان .

حجاب . . وما هو إلا الزمن اليسير حتى صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، واندك صرح الظلم والطغيان ، وأشرقت مباءة الأصنام والأوثان بنور الحق والإيمان .

* * *

أما بعد فهذه مثل رائعة من الإيمان الكامل تتألق فى تاريخ الإنسانية كما تتألق النجوم الهادية ولا غرو فهى تشع بالإيمان والتضحية ، ويتجلى فيها مدى حب المسلمين الأولين لدينهم ونبيهم ؛ حتى لقد جادوا فى هذا السبيل بأرواحهم ؛ والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

ونحن الآن فى عصر قست فيه القلوب ، وغشيتها ظلمات الأثرة والأنانية ، فمن الحق علينا — نحن المسلمين — أن نسير على نهج أسلافنا الأبرار ، فإن لم نستطع أن نساويهم فليس أقل من أن نبذل ما فى وسعنا لكى نتدرج شيئا فشيئا إلى التضحية والفداء ومن سار على الدرب وصل . ويومئذ يعود للاسلام مجده التليد ، ويتلألأ سعده من جديد ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

عاقبة الظلم وجزاء الإحسان [1]

تسير القافلة البشرية فى طريقها الطويل إلى غايتها المحتومة ؛ ويتتبَّع التاريخ تلكم الخطوات المتعاقبة المتلاحقة فيسجلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ويتركها للأجيال والقرون تقرأ فيها المقدمة والنتيجة ؛ والسبب والغاية « والبداية والنهاية » كى تتلمس من وراء ذلك كله موطن العظة والعبرة ، فتقيس الحاضر بالغابر والطريف بالتليد ، وتبنى على هذا الأساس ما ترجوه فى الحياة من غاية كريمة وهدف مجيد ..

. . وكلما تأمل الباحث فيما يحويه صدر الزمن من الحوادث والأنباء . ازداد يقيناً على يقين واطمئناناً إلى اطمئنان بأن سنة الله فى خلقه تجرى على نظام لا سبيل إلى تغييره وتبديله وتسير على منهج مرسوم يشرق مع الشمس ويبزغ كذلك مع القمر والنجوم ، وفى ظل هذا المنهج الذى لا يتخلف يستطيع العاقل من الناس أن يتبين موضعه فى الحياة ، ويوجه نفسه إلى شاطىء الخير والنجاة . .

وقد جرت سنة الله فى خلقه — وهو أعدل الحاكمين — بأن يجعل جزاء الاحسان إحساناً ، وعاقبة الظلم وبالا وخسراناً ، فقد قال تعالى (هل جَزاء الإحسان إلاَّ الإحسان) وقال (وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليمٌ شديد) وثبت فى الصحيين عن أبى موسى رضى الله

(١) بمجلة الحج فى / ٨ / ١٣٧٠ هـ

عنه قال : قال رسول الله صلى الله وسلم « إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » .

. . والتاريخ الإسلامى يفيض بالمثل الرائعة والأحداث المتنوعة التى ترينا صوراً صادقة عن عاقبة الظلم والطغيان ، وجزاء البر والإحسان ، وشتان بين الطريقين وما أبعد الفرق بين العاقبتين ، ولكنا — رعاية للمقام — سنكتفى من هذه الصور العديدة بالقليل ، سائلين الله أن يجعل فيه النفع ويهدى به سواء السبيل . .

* * *

ألا فلنقف عند هذه الصفحة من سجل الأيام لننظر ماذا نرى ؟

هذا هو النضر ابن الحارث القرشى من بنى عبد الدار بن قصى ، يتتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فى مجالسه بمكة مع الملأ من قريش ، ويتحداه تحدى الأحمق المفتون حتى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان إذا جلس مجلسا فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشا ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه النضر فى مجلسه إذا قام ، ثم حدث قريشا وذكر لهم العجائب والغرائب عن رستم الفارسى واسفنديار وسائر ملوك الفرس ، ثم يقول « والله ما محمد بأحسن حديثا منى وما أحاديثه إلا أساطير الأولين » . . وهو الذى أنزل الله فى شأنه هو ومن يؤيد دعواه الكاذبة (وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بُكرةً وأصيلا قل أنزلَهُ الذى يعلم السِّر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما) وفيه نزل قول الله تعالى (ويلٌ لكل أفاكٍ أثيم ، يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يُصر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذب أليم)

وهذا هو عقبة بن أبى معيط . وقد كان الجار الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وكان ذلك فى مكة بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بزمن قليل ، ودعا إليها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله عليه السلام « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله » فنطق عقبة بالشهادة فبلغ ذلك أبى بن خلف الجمحى القرشى فقال . ماشىء بلغنى عنك ؟ قال لا شىء . دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له . قال أُبَىّ : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبزقْ فى وجهه وتلطمْ عينه ، فلما رأى عقبةُ رسولَ الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه فى سورة الفرقان (ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذتُ مع الرسُول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا » وذكر البخارى فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى حجر الكعبة فأقبل عقبة بن أبى معيط ووضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال « اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » . .

* * *

ثم لنغمض الطرف عن المضى فى قراءة تلكم الصفحة المظلمة الشوهاء ، المليئة بالظلم والطغيان ، والإثم والعدوان ، ولننتقل إلى الصفحة التى تليها من هذا السجل الحافل بالأنباء الجسام ، فماذا نرى ؟

. . هؤلاء هم بنو هاشم و بنو المطلب ، مسلمهم وكافرهم جميعا عدا أبى لهب يقفون صفا مع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ويضحون من أجله براحتهم وسعادتهم ، حتى لقد كتبت قريش صحيفة تعلن فيها مقاطعتهم ،

خلا تبيعهم ولا تبتاع منهم ولا تتعاون معهم ، ثم علقت هـذه الصحيفة فى جوف الـكعبة ، ونفَّذت هذه المقاطعة المخيفة فلجأ بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة يعانون الحرمان ألوانا ، حتى لقد بلغ من سوء حالهم أن أكلوا ورق الأشجار ، وعلى الرغم من عض الزمان وكرب الأيام فإنهم كانو يزدادون حرصا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتضحية من أجله ، وفى ذلك يقول قائلهم .

فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولانشتكى ماقدينوب من النـكب
ولـكننا أهل الحفائظ والنهى ... إذا طار أرواح الـكماة من الرعب

. . وقد استمرت هذه المقاطعة المروعة ثلاث سنوات متتابعة ، ثم أذن الله لهذا الليل الطويل بالانتهاء فقام خمسة من كرام الرجال هم : هشام ابن عمرو ، وزهير بن أُمَيَّة ، والمطعم بن عدى ، وأبو البَخْتَرى بن هشام ، وزَمْعة بن الأسود فشقوا صحيفة المقاطعة وأعلنوا نقضها ، وحينئذ خرج بنو هاشم و بنو المطلب من هـذا السجن الضيق المميت إلى معترك الحياة ، ضار بين فى الإخلاص لمحمد صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثال ، محتملين من التضحية ما ينوء بالجبال .

وهكذا يشرق التاريخ بمثل هـذا البر والإحسان من بنى هاشم و بنى المطلب ، ومن أولئـكم الأبطال الذين نبذوا تلك المقاطعة الآثمة الظالمة . . وهيهات أن نقارن تلـكم الصفحة الشوهاء المظلمة التى رأيناها من قبل تفيض بالظلم والطغيان ؛ بمثل هذه الصفحة المشرقة التى تفيض بالتضحية والإخلاص والبر والإحسان : فـ (لا يَسْتوى الخبيثُ والطيبُ) (ولا تَسْتوى الحسنةُ ولا السيئةُ) .

. . ولا غرو أن هذه مقدمات سوف تتبعها نتائج ؛ وبداية لابد لها من نهاية وزرع سيأتى يوم حصاده ، والله عز وجل يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) فى الدنيا والآخرة (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فى الدنيا والآخرة . . والحكمة العربية الخالدة تقول :

من يزرع الشر يحصد فى عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبان

وتقول :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

. . ولقد دارت الأيام دورتها ووقف الفريقان من أحسن ومن أساء . . أمام عدل القضاء فى غروة بدر فى السنة الثانية من الهجرة . . ومن عجب أن الفريقين قد اشتركا فى غزو محمد صلى الله عليه وسلم ومحاربة المسلمين . . ولكن إذا كانت السيئة لا تنسى فإن الحسنة أيضا لا تضيع ، مهما امتد الزمن وطال الأمد ؛ وها هو ذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يرعى الجميل لمن أحسن إليه وقت الشدة ، فيأمر أصحابه بألا يقتلوا أحداً من أولئكم الذين أحسنوا إليه من بنى هاشم ، أو ممن عاون فى نقض صحيفة المقاطعة الظالمة . . ثم يؤكد التوصية على عمه العباس بن عبد المطلب فيقول (ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها) ويشاء الله عز وجل أن يكتب النصر للمسلمين ؛ وأن يقتل أئمة الكفر والضلال ممن وقفوا حجر عثرة فى سبيل الإسلام ، فأما هؤلاء الذين أوصى بهم الرسول خيرا فقد رجعوا إلى مكة — إلا ما شاء الله — ثم شرح الله صدورهم بعد ذلك للاسلام فاعتز بهم دين الله وأشرقت عليهم مغفرته ورضوانه وهكذا يكون جزاء البر والإحسان . .

أما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وهما اللذان ذكرنا طرفا من عداوتهما للاسلام و إيذائهما للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنهما أُخذا فى هذه الغزوة أسيرين ، ثم قتلا فى الطريق إلى المدينة ، وكأنما شاء الله ألا يقتلا أثناء المعركة ليطول أمد ذلتهما وليدركا عاقبة غيِّهما ، وليزداد فرح المسلمين بالانتقام منهما ، وليريا رأى العين كيف ينصر الله من ينصره ، والله قوى عزيز . .

. . قتل النضر حين عرض الأسرى على النبى صلى الله عليه وسلم عند بلوغهم الأثيل ، فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعدت لها فرائصه وقال لرجُلٍ إلى جنبه : محمد والله قاتلى ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت ، قال الذى إلى جنبه : ما هذا والله منك إلا رعب ، وقال النضر لمصعب بن عمير وكان أقرب مَنْ هناك به رحما : كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه فهو والله قاتلى إن لم تفعل . فكان جواب مصعب ، إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا وكنت تعذب أصحابه ؛ قال النضر : لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حى ، قال مصعب : والله إنى لا أراك صادقا ، ثم أنى لست مثلك فقد قطع الإسلام العهود ، وكان النضر أسير المقداد وكان يطمع أن ينال فى افتداء أهله أياه مالا كثيرا ، فلما رأى الحديث حول قتله صاح : النضر أسيرى قال النبى عليه السلام : اضرب عنقه ، واللهم أغن المقداد من فضلك ، فقتله على بن أبى طالب ضربا بالسيف . . .

ثم أمر النبى صلوات الله وسلامه عليه بقتل عقبة بن أبى معيط حينما كانوا من طريقهم بعرق الظبية ، ولما علم عقبة بذلك صاح وقد أخذ منه الرعب والفزع كل مأخذ : فمن للصبية يا محمد ؟ قال : النار . وقتله على بن

أبى طالب أيضا ؛ وقيل عاصم بن ثابت ، وهكذا ذهب الخصمان الفاجران صريعى بغيهما وذلك جزاء الظالمين . .

* * *

و بعد فإن المصير الذى انتهى إليه النضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط هو مصير كل ظالم مهما أُرخى له العنان ، وامتد به الزمان ، و إن النهاية التى ظفر بها العباس بن عبد المطلب وغيره من بنى هاشم على الرغم من اشتراكهم مع قريش فى غزوة بدر ، هى النهاية التى يظفر مثلها دائما كل مخلص محسن مهما اصطلحت عليه الخطوب وأحاطت به الأخطار ، فمن الحق علينا الآن أن نوازن بين حالتين ، ونقارن بين صفحتين ؛ إحداهما محسنة والأخرى ظالمة ، و إن شئت فقل إحداهما مشرقة والأخرى مظلمة ، وأن نلتمس العبرة فى ضوء هذه المقارنة فنكبح جماح النفس عن الظلم والطغيان ، ونهيب بها إلى البر والإحسان (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

الإسراء والمعراج (١)

تلتمع فى أفق الدنيا ذكريات مجيدة من تاريخ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فتبدد حلك الضلال والغواية ، وتضىء للسارين طريق الهداية ، وترشد الحائرين إذا ما اضطرب الأمر وأظلم السبيل ، واختفى القطب وحار الدليل .

وكلما طافت هذه الذكريات المضيئة بالنفوس المؤمنة زادتها إيمانا ، وغمرتها يقينا واطمئنانا ، وأهابت بها أن تلتمس العبرة والموعظة الحسنة ، وأن تجعل من هذا الماضى السنى الباهر مقياسا يفيدها فى الحاضر ، ونبراسا تسير على ضوئه إلى أهدافها العالية ، وآمالها الغالية .

وقصة الإسراء والمعراج التى نتحدث عنها الآن ، إن هى إلا قبس من تلكم الذكريات المجيدة ، وآية خالدة أكرم الله بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى وقت عصيب وجو رهيب ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

أجل ، لقد كان الإسراء والمعراج رحلة مباركة فى ملكوت السموات والأرض ، رأى فيها الرسول مارأى من آيات ربه الكبرى ، وأشرقت عليه من لدن المولى الكريم رحمات وبركات ، وتحيات طيبات .

وكأنما شاء الله سبحانه أن يُكرم رسوله بهذه المنحة القدسية ، ويُكرِّمه بتكليم النفحة العلوية ، ليكون له فى ذلك عِوضٌ أىُّ عوض عما لحقه من

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ .

أذى المشركين وعنتهم ، وما أصابه من آلام ومتاعب فى طريقه الشاقة إلى غايته الحاقة : « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

* * *

لقد كان الإسراء والمعراج بعد البعثة النبوية وقبل الهجرة بعام واحد ، وفى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب كما هو المشهور ، ولقد ثبت الإسراء بصريح القرآن الكريم ، وذلكم قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » : وثبت الإسراء والمعراج معاً بالأحاديث النبوية الصحيحة التى لا يتطرق إليها الضعف والوهن ، ومن ذلك ماجاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتيت بالبُراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه . قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فأخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا فإذا بآدم فرحّب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة يحيي وعيسى ابن مريم فرحبا بى ودعوا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا وإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أُعطى شطر الحُسْن فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله فإذا أنا بإدريس

فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله فاذا أنا بإبراهيم مُسْنِداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فاذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال . فلما غشيها من أمر ربى ماغشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إلى ماأوحى ، ففرض علىَّ وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى فقال : مافرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة ، قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف فان أمتك لايطيقون ذلك ، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم ، قال فرجعت إلى ربى وقلت له : يارب خفف عن أمتى ، فحط عنى خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت حط عنى خمساً قال إن أمتك لايطيقون ذلك فارجع إلى ربك فسله التخفيف ، قال فلم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه يامحمد . إنهن خمسُ صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ، ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة ، قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحيت منه .

* * *

هذه قصة الإسراء والمعراج كما ذكرها لنا رسولنا الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، وهى كما ترون رحلة حقيقية بالجسد والروح معاً ، ولم تكن

رؤيا فى منام ، ولا حلماً من الأحلام كما وهم الواهمون .. ولو كان الإسراء والمعراج بالروح فحسب لما كذبه المشركون من قريش وسائر العرب ، ولما عجبوا له هذا العجب وقابلوه بالإنكار والجحود والسخرية والازدراء .. بل لما ذكره الله سبحانه وتعالى فى مقام التكريم والامتنان على رسوله حيث يقول : « سُبحان الذى أسرى بعبْده ليلا من المسجِد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله »

* * *

وقد حاول بعض العلماء المحدثين أن يستدل على إمكان الإسراء والمعراج . أو يقرب إمكان وقوعه إلى الأذهان ، بما وصل إليه العلم من مخترعات حديثة تطوى المسافات الشاسعة فى زمن قليل كالطائرات النفاثة وغيرها ، ولكنا لا نذهب مثل هذا المذهب ، فإن هذه المخترعات الحديثة — مهما بلغت من عظمة — لها مقومات من الأسباب والمسببات . وكل شىء يقوم وجوده على سبب معروف فهو أمر عادى لا غرابة فيه ، والمعجزات التى اختص الله بها الرسل والأنبياء إنما هى أمور خارقة للعادة تدعو إلى العجب ولا تخضع فيما نعلم لسبب ، وإذا ساغ لنا أن نتوسع فى تفسير معنى المعجزة فإنا نقول إن معجزة الإسراء والمعراج كانت ولا تزال معجزة القرون والأجيال ، ومهما جد فى الكون من عجائب المخترعات ، فهيهات ثم هيهات أن تدنو من تلكم المعجزات الخالدات . وما دمنا نحن المسلمين نؤمن بأن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يحيى الموتى بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ، ونؤمن بأن الله سخر لسليمان الريح تحمله وتجرى بأمره غدوها شهر ورواحها شهر ، ونؤمن بغير ذلك من المعجزات لجميع المرسلين .

فلماذا يصعب علينا أن نؤمن بأن الإسراء والمعراج آية خالدة كرم الله بها خاتم الرسل والأنبياء ؟ اللهم قد آمنا بك وبرسولك محمد صلى الله عليه وسلم . وآمنا بأن الإسراء والمعراج بالروح والجسد ، وان يتزحزح عن نفوسنا هذا الإيمان إن شاء الله ما دامت الروح فى الجسد .

***

ولقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تلكم الرحلة المباركة فى نفس الليلة إلى مكة المكرمة تحف به السكينة ويغمره الرضى والطمأنينة ، فلما أصبح الصباح وأخبر الناس بحادث الإسراء ، أيقن الكثير منهم أن هذا كذب وافتراء ، أو جنون وهذيان ، بل لقد ارتد عن الإسلام قوم لما يدخل الإيمان فى قلوبهم وقالوا : هذا والله الأمر البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة . ؟ ولقد طلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس ولم يكن رآه قبل هذه الليلة ، فأخذته الحيرة والألم فجلاه الله له فصار يصفه وصفاً شاملا لا شك فيه ، وسألوه عن آية أخرى على صدق كلامه فأخبرهم عن عيرٍ مر عليها فى طريقه ، وذكر لهم من الأمارات والعلامات ما لاسبيل إلى الطعن فيه ، ولكنهم على الرغم من ذلك كله لم يزدادوا إلا كفراً وعنادا ، ولم يزدد الرسول بإزاء ذلك العناد منهم إلا صبراً وجهادا .

ولقد سعى أناس إلى أبى بكر رضى الله عنه بهذا النبأ العجيب وحسبوا أنهم سيفتنونه ، فلم يزدد الصديق الكريم إلا إيماناً بالرسول وتصديقا ، حتى لقد سمى منذ ذلك اليوم صديقا .. وهكذا الصداقة المخلصة تعظم فى المحن قيمتها ، وتظهر فى الشدائد ثمرتها ، وهكذا الإيمان القوى لا تضعفه الفتن .

ولا تزعجه عواصف الزيغ والضلال ، بل يهزأ بالأعاصير والأنواء . ويسخر من تقلبات الأجواء .!

* * *

إن ذكرى الإسراء والمعراج مشرقة عطرة ، تحيي الإيمان فى النفوس وتبعث فى القلوب العظة والعبرة ، رأى فيها النبى الكريم الآيات البينات وغمرته من الله الفيوضات والرحمات ، وفتحت له جميع الأبواب ، حتى وصل إلى أسمى مقام وأعلى جناب ، وكان من شرف هذه الليلة المباركة أن فرضت فيها الصلاة ، وتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بها بنفسه من مولاه ، وكان من فضل الله ورحمته بالرسول والمسلمين ، أن جعل الخمسين صلاة خمس صلوات ، ثم جعل للخمس ثواب الخمسين .. « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

مواطن العبر فى غزوة بدر الكبرى (١)

« لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »
« حديث شريف »

يطالعنا فى كل عام هلال رمضان المبارك . فيسرى ضوؤه فى أطواء القرون مبدداً غواشى الظلمات ؛ مجددا فى قلوبنا روائع الذكريات ؛ مهيبا بنا إلى التماس العبر من تاريخ الإسلام العطر وأمجاده الخالدة . . بيد أن أعظم الذكريات التى تزدهر فى نفوسنا على مدى الأزمان ؛ وينتشر سناها كلما أشرق هلال رمضان ؛ ذكرى غزوة بدر الكبرى وهى أول معركة كبيرة فى الإسلام قامت بين الحق والباطل فانتصر الحق وأينع وأثمر ، وخذل الباطل وذوى ثم هوى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ؛ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » ..

وإنه لمن التكرار الضئيل الفائدة أن نعيد سرد هذه الغزوة إلى القارىء بجميع الدقائق والتفاصيل ؛ ما دامت أمهات الكتب التاريخية قد أوسعت الكلام فى هذا السبيل ؛ ونحن لذلك سنجتزىء الكلام أحيانا ؛ ولكنا سنقف لدى مواطن العبر فى تلك الغزوة سائلين الله أن يجعل لنا من ذلك خير أسوة وأكرم قدوة .

* * *

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فى عدد من أصحابه يبلغ خمسة وثلاثمائة رجل . وكانوا يريدون أن يعترضوا عيراً لقريش آتية

(١) نشرت بمجلة الحج سنة ١٣٧٠ هـ .

من الشام يقودها أبو سفيان بن حرب فى جمع قليل لايتجاوز الأربعين [١] وحينما علمت قريش فى مكة بخروج المسلمين لمواجهة تلك العير ؛ نفروا سراعا فى عدد كبير يكاد يبلغ ثلاثة أمثال المسلمين ؛ وخرج على رأسهم عظماء قريش وصناديدها وذوو الرأى فيها ليلتقوا مع محمد وأصحابه ؛ كى ينقذوا أموالهم وتجارتهم ؛ وينقذوا مع ذلك مجدهم وكرامتهم .

وكان خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة كما ذكر ابن هشام « لثمان خلون من شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها [٢] كل اثنين منهم ؛ وكل ثلاثة ؛ وكل أربعة يعتقبون بعيرا ، وكان حظ محمد فى هذا كحظ سائر أصحابه فكان هو وعلى ابن أبى طالب ومرثدبن مرثد الغنوى يعتقبون بعيراً واحدا » وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير لهذا الموقف الكريم من النبى العظيم ؛ فهو يشارك أصحابه فى الشدة والرخاء ؛ ويقاسمهم السراء والضراء ، ويكره أن يتميز عليهم حتى فى الشىء اليسير ؛ فلا يريد أن يختص وحده ببعير ! ألا إن فى ذلك لعبرة ! .

وحينما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قريشاً قد خرجوا بجموعهم ليمنعوا عيرهم ؛ جمع أصحابه واستشارهم ، فتكلم أبو بكر ثم عمر بما يؤيد الرسول صلى الله عليه وسلم ويعضده ، ثم تكلم المقداد بن عمرو فقال : « يارسول الله ؛ امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك

---

(١) إنما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك رداً لما لحقه من ظلم وعدوان سابقين ، ولكى تظهر قوة الإسلام فيهابه الأعداء وينضوى تحت لوائه من يشاء دون خوف

(٢) يعنى يتبادلون الركوب على البعير لكل واحد نوبته .

فقاتلا إنا معكما مقاتلون » ثم تكلم سعد بن معاذ من الأنصار فقال : « لقد آمنا بك وصدقناك ؛ وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وماتخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصُبُر فى الحرب صُدُق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله » .

وهنا أيضاً يجدر بنا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير ، فإن عظمة الجنود إنما تتركز على أساس من عظمة القائد ، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقود أصحابه إلى ميدان الجهاد مستضيئاً بهدى القرآن وتعاليم الإسلام التى تعد المجاهدين فى سبيل الله إحدى الحسنيين ؛ وتبشر الشهداء بالحياة السعيدة الخالدة حيث يقول الله عز وجل : « ولاتحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ؛ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . ومن أجل ذلك نجحت تلك القيادة الرشيدة وسادت حتى علا لواء الإسلام فى كل مكان ؛ وانسابت كلمة الحق بين الأمم تحيى موات الأنفس والأرواح والقلوب . . وإن فى ذلك لعبرة .

* * *

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى طريقهم ، وقد أشرق وجه الرسول بالمسرَّة لما رأى من قوة إيمان المسلمين ، وقال لهم « سيروا وابشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين [1] والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » ولكن شاء الله أن يفلت العير من المسلمين . وأن ينجو

(١) العير التى كان يقودها أبو سفيان . والنفير الذين خرجوا من مكة لانقاذ العير .

أبو سفيان بما معه من أموال ورجال ، وعلم النفير من قريش وهم فى طريقهم لإنقاذ العير وقتال المسلمين بأن العير قد نجت . فود كثير منهم الرجوع إلى مكة ، حتى لقد رجع بنو زهرة عن آخرهم ، ولكن أبا جهل رأى فى ذلك العار والصغار وقال « والله لا نرجع حتى نرد بدرا — وكانت بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام . ونسقى الخمر . وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب و بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا »

وقد استجابت سائر قريش لرأى أبى جهل وساروا حتى وصلوا وادى بدر فنزلوا بالعدوة[1] القصوى عن المدينة خلف كثيب من الرمل يحتمون به ؛ أما المسلمون وقد فاتتهم الغنيمة وأفلت العير منهم فقد أجمعوا على الصمود أمام العدو مهما بذلوا فى هذا السبيل ، فساروا حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا من المدينة لدى أدنى ماء من بدر .

وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليما بهذا المكان ؛ فلما رأى حيث نزل النبى صلى الله عليه وسلم قال : يارسول الله . أرأيت هذا المنزل . أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغوّر ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا . وحينئذ فكر الرسول صلى الله عليه وسلم فاقتنع بهذا الرأى السديد ، وأعلن أمام المسلمين أنه قد نزل على رأى الحباب وأن فى ذلك الحكمة والصواب . .

---

(١) عدوة الوادى شاطئه وجانبه

وهنا أيضا ينبغى أن نقف وقفة إعجاب وتقدير ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم مستبداً برأيه ولا راكباً متن الغرور بل كان يشاور أصحابه كى يتلمس وجه الخير والرشاد عملا بقوله تعالى (وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) وكان يحترم الرأى الصائب وينفذه ولو تعارض مع رأيه ، فهل يكون فى ذلك عبرة وتبصرة ؟ إن القادة والرؤساء كثيرا ما يعميهم التعصب الممقوت ، والاستبداد بالرأى فينزلقون إلى الشر ويجرون وراءهم الأمم والشعوب إلى مهاوى الفناء ، ولو استطاع هؤلاء القادة والرؤساء السادرون فى عماية الكبرياء والأنانية أن ينتفعوا بهذا الدرس العملى من المربى الأول صلوات الله وسلامه عليه ، وبمثله من الدروس التى ألقاها الزعماء والمصلحون على الإنسانية ، لتغيَّر مجرى التاريخ فى كثير من الأزمنة والعصور .

ولما نفذوا رأى الحباب ، وبنوا الحوض قال سعد بن معاذ : « يانبى الله ، نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد لك حبا منهم ، ولوظنوا أنك تلقى حرباً ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » ، وقد أثنى الرسول صلوات الله وسلامه عليه على سعد ودعا له بخير ثم بنى العريش للنبى حتى يكون فى مأمن من العدو إذا لم يكن النصر فى جانب المسلمين ؛ وهكذا الإخلاص والإيثار إنما يظهران فى أوقات المحن ، وهكذا الإيمان العميق يتجلى نقاؤه وصفاؤه أمام الشدائد ، وبمثل هذا الإخلاص والإيثار والإيمان مَنَّ الله على المسلمين ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وإن فى ذلك لعبرة .

* * *

وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان[1] بدأت المعركة بين فئتين ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، فكان هذا اليوم يوما عسيرا على الكافرين غير يسير . وقد لجأ فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى ربه خاشعا متضرعا حينما رأى قوة المشركين وكثرة عددهم إلى جانب قلة عدد المسلمين ، وظل يهتف من أعماق نفسه قائلا : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد » . وهكذا حتى لقد سقط رداؤه عن منكبه فرده عليه أبو بكر وهو يقول : « يانبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك » ولكن الرسول الكريم يظل فيما هو فيه من ضراعة وابتهال مشغولا عن نفسه وعن كل ماحوله بدعاء ذى الجلال . حتى أخذته خفقة من نعاس فرأى نصر الله يضىء ويملأ الآفاق ، واستيقظ فرحا مستبشرا وخرج إلى الناس يحرضهم على القتال ويقول لهم : (والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة) .

وقد تجلت عناية الله برسوله وبالمؤمنين فأيدهم بجنوده وملائكته فكانت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . وانجلت المعركة عن هزيمة المشركين فولوا مدبرين بعد أن قتل المسلمون منهم سبعين وأسروا مثل ذلك ، بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا فحسب ، (وكم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين) وقد ذكر الله هذا الفضل والنعمة فى كتابه الكريم فقال : (إذ تستغيثون ربكم فاستجابَ لكم أنى

(١) يروى أن هذا اليوم هو نفس اليوم الذى ابتدأ فيه نزول القرآن ، وبين التاريخين أربعة عشرة سنة قمرية .

مُمدكم بألفٍ من الملائكة مُرْدفين وما جعله الله إلا بُشرى ولتطمئنَّ به قلوبُكُمْ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (إذ يوحي ربُّك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعْناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسولَه ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) (فلم تقتلوهم ولكن الله قتَلَهم وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى و لِيُبْلِي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم) .

* * *

وبعد فهذه بعض العبر من غزوة بدر الكبرى — وكم فيها من عبر وعظات كثيرة — وما أحوج المسلمين في كل عصر وحين إلى الانتفاع بمثل هذه العبر الخالدة حتى يستردوا المجد الغابر ويصلوا الماضي بالحاضر (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين) .

بين يهود الأمس واليوم (١)

دعوة الإصلاح فى كل عصر وحين تتركز دائما حول تكوين الخلق وتدعيم بنائه ، وحياطته بسياج حصين يمنع عنه عوادى الضعف والوهن . . وعلى هذا الأساس القوى المتين قامت الأديان فجاءت بالنظم الصالحة والقوانين العادلة التى لو نفذت بحذافيرها لأقامت الناس على المحجة الواضحة ، وأخذت بأيديهم إلى الأدب القويم والخلق الكريم ، وإلى هذا المعنى يشير الرسول صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » و « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولا شك أن حوادث الزمن وتجارب الأيام قد علمتنا أن نؤمن إيمانا أثبت من الرواسى ، وأعمق من خفايا الضمائر بأن الأمم لا تنهض نهضة سليمة ولا تحيا حياة كريمة إلا فى ظل الآداب والأخلاق القويمة ، ومهما ير الراؤن من مجد وسلطان لأمة تنكبت طريق الآداب ، وحادت عن شرعة الحق والصواب فأنه مجد قلق وسلطان زائف سرعان ما تعبث به الأحداث وتذروه الرياح ، ذلكم بأن الباطل ليس له قرار ، ومهما بلغ من ضخامة فهو على شفا جرف هار ؛ ومن يزرع الشر يحصد فى عواقبه ندامة . .

وقد عرفت الإنسانية الخير والشر منذ كان النهار والليل ، ونعمت منذ فجر حياتها بالخلق الكريم ، كما شقيت فى الوقت نفسه بالمكر السيء والطبع اللئيم ، ولو كان الناس يعتبرون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويرون

(١) نشرت بمجلة الحج سنة ١٣٧٠ هـ ويقدمها المؤلف إلى « إسرائيل » المزعومة ، بشيراً بنهايتها المشئومة .

ماذا جنى الغدر والبغى والمكر السىء على ذويه ، لاستقام الجميع على الطريقة ، ولصفت الأجواء من غيوم البغضاء والشحناء وعاش العالم فى جو مزدهر بالأمن والسلام .

***

والعالم الإسلامى الآن محوط بالشر من كل جانب ، وما أشبه ما يعانيه المسلمون فى هذه الأيام من غدر الأعداء و بغيهم ومكرهم الخبيث ، بما كان يعانيه المسلمون من الأعداء فى أول عهدهم بهذا الدين الحنيف ، ونضرب مثلا لذلك موقف إسرائيل اليوم من جيرانهم المسلمين ، فإنه يذكرنا إلى حد كبير بموقف اليهود فى يثرب من جيرانهم الأنصار والمهاجرين ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عقد مع اليهود عهوداً فنبذوها ، وارتبط معهم بمواثيق فسرعان ما نقضوها جريا وراء أهوائهم ، وحرصا على ماظنوه ينفعهم ويفيدهم ، وكان أساس تلك العهود التى أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود . الأخوة فى السلم والدفاع عن المدينة فى وقت الحرب ، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما ، ولكن اليهود — كعادتهم — غدروا وخانوا ، وكانت عاقبة هذا الغدر والخيانة شؤما عليهم وشراً ووبالا حاق بهم .

فيهود بنى قينقاع نكثوا أيمانهم ونقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأوا المسلمين بالعدوان ، ومن ذلك أن امرأة من نساء الأنصار قدمت إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية لكى تعرضها على صائغ منهم ، فجلست إلى صائغ فى تلك السوق ، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك اليهود

وصاحت المرأة صيحة هى مزيج من الحزن والندم والخجل والاستغاثة ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، واجتمعت اليهود على المسلم فقتلوه . . وحينئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساءهم ، وطلب إليهم أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودة والسلام حتى لا يصيبهم ما أصاب قريشا فى غزوة بدر ، ولكنهم استخفوا بوعيده وأجابوه « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » ثم تظاهروا بالعداوة وتحصنوا فى حصونهم فلم يكن هناك بد من مقابلة الشر بمثله وإلا تعرض مركز المسلمين للتداعى والانهيار . .

ويهود بنى النضير — أيضا — نقضوا العهد والميثاق مع المسلمين ، وبدأ الغدر والعدوان من جانبهم ، فهموا بأن يلقوا على الرسول صلى الله عليه وسلم صخرة وهو مستند إلى جدار فى محلتهم [1] مع نفر من أصحابه ، ولكن الرسول الأكرم رأى برهان ربه وأطلعه الله على مؤامرتهم الغادرة الفاجرة فقام راجعاً إلى المدينة وقام أصحابه من بعده . ثم اجتمع الرسول بالمسلمين فى المسجد وعرض الأمر عليهم ، وكان أن أرسل الرسول إلى بنى النضير محمد بن مسلمة وقال له « اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ؛ لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ؛ لقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » ..

---

(١) كانت محلتهم على مقربة من قباء.

ويهود بنى قريظة — كذلك — نقضوا العهد مع المسلمين فى غزوة الأحزاب ، وقد كان ذلك فى أحرج الظروف ، وأعنف الأزمات ؛ وفى وقت تآمرت عناصر الشر فيه ضد المسلمين ، وتألب الطغيان عليهم من كل مكان ، وهو الوقت الذى وصفه الله تعالى بقوله « إذْ جاءوكم من فوقِكم ومن أسْفل منكمْ ، وإذْ زَاغتِ الأبصَارُ وبلغت القُلُوبُ الحناجِرَ وتظنُّون بالله الظُّنونا ، هنالك ابتلىَ المؤمنونَ وزلزِلوا زلزالا شديداً ؛ وإذ يقُولُ المنافقُون والذين فى قلوبهمْ مرضٌ ما وَعدنا الله وَرسُوله إلا غُرورًا ؛ وإذْ قالت طائفةٌ منهم يا أهْل يَثرب لا مقامَ لكمُ فارجِعُوا ويستأذنُ فريقٌ منهم النَّبى يَقُولونَ إنَّ بيوتَنَا عورةٌ وما هى بِعَوْرَةٍ إن يُريدُونَ إلا فِرارا »

* * *

وقد لقى اليهود جزاء غدرهم وحل بهم سوء صنيعهم ، وجنوا عاقبة خيانتهم خسرانا ونكالا أصابهم فى أموالهم وأنفسهم ، وهم أحرص الناس على المال والحياة .

فأما بنوا قينقاع فقد حاصرهم المسلمون فى دورهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد . . حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد صلى الله عليه وسلم . فانتهى الأمر بإخراجهم من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال . فذهبوا أذرعات بالشام . .

وأما بنوا النضير فقد طردوا كذلك من ديارهم على أن يكون لكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ، وأفاء الله ما بقى من أموالهم على المسلمين ، وقد ذهب بعضهم إلى خيبر وسار الآخرون إلى أذرعات بالشام . .

وكان جزاء بنى قريظة — وهم الذين خذلوا المسلمين فى وقت الشدة بانضمامهم إلى المشركين فى غزوة الأحزاب ؛ ولولا لطف الله لهلك المسلمون عن آخرهم — كان جزاؤهم أن يقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم ، وقد أسلم أربعة من بنى قريظة فنجوا من القتل ، وضربت أعناق الباقين وما ظلمهم الله ولكن كانوا لأنفسهم من الظالمين

* * *

وها هى ذى إسرائيل اليوم تمثل دور اليهود القديم مع المسلمين دور الخديعة والمكر ، والخيانة والغدر والجبن والخور ، فهى تعمل فى الخفاء كما كانوا يعملون ، وتستعين ببعض الدول الكبرى على المسلمين كما استعان بنو النضير بقريش على الأنصار والمهاجرين ، وتؤلب على العروبة والإسلام الأحزاب كما فعل اليهود مع المسلمين فى غزوة الأحزاب ، ومن عجب أن تجد إسرائيل أعواناً من العرب والمسلمين وهم أولئك الذين عرف العالم مخازيهم وفضائحهم وتولى القضاء محاكمتهم ، كما وجد اليهود على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أعوانا من المنافقين ، وهم أولئك الذين تحدث الله عنهم بقوله : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحد أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم . ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولُّنَّ الأدبار ثم لا ينصرون » .

ألا إن التاريخ ليعيد نفسه وما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن اليهود ليسيرون الآن فى ضلالهم القديم ، وإن الهوان الذى أصابهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لينتظرهم .

وإنه لحقٌ على المسلمين أن يستضيئوا فى هذه المحنة بمبادىء الإسلام ، وأن ينفذوا تعاليم الدين القويمة ، وآدابه الحكيمة فيما بينهم كما نفذها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى تتحقق للمسلمين الأخوة الكاملة والإخلاص الشامل .. وحينئذ يأتى اليوم الموعود والنصر المبين ، ويخرب اليهود بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ولا غرو فإن الظلم لا يدوم ، ومرتع البغى وخيم ، ولا يحيق المكر السيء إلا أهله .

غيرة محمودة وتنافس شريف (١)

يتجه الإسلام فى علاج الأمراض الأخلاقية والمشكلات الاجتماعية إلى أقوم طريق ، ويوجه الغرائز البشرية والطبائع الإنسانية إلى المنهج السوى الصالح ، فهو لا يقاوم الرغبات بل يقومها ولا يناهض الطبائع والعادات بل ينهض بها ولا يقتل الحيوية الموجودة فى النفوس إذا ما جمحت أو ينزل بها إلى الدرك الأسفل وإنما هو يحييها ويسمو بها « ويعليها » .

ولقد عالج الإسلام العصبية القَبَلِيَّة فى نفوس العرب على هـذا الأساس السليم فوجهها إلى الناحية الصالحة المستقيمة ، وحول ذلك التيار القوى الذى كان يغذيها إلى اتجاه جديد يوصل إلى غاية مجيدة ، فبعد أن كانت غاية المرء فى الجاهلية هى نصرة قبيلته والدفاع عن أهله وعشيرته مهما نأوا عن الحق وتشبثوا بالباطل ، أصبحت الغاية فى الإسـلام هى نصرة الحق على الباطل ولو حارب المرء فى هذا السبيل أهله وبنيه ، وتبرأ من أمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه ، وبذلك صارت الحمية الجاهلية عزة إسلامية وعصبية دينية ، وأصبح التنافس القبلى البغيض تنافسا رشيداً يسعى إلى التعمير لا التدمير ويهدف إلى الانشاء والبناء لا إلى الهدم والافناء وغدا التسابق على المادة أو الجاه والسلطان تسابقا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الحق ورفع لواء الإسلام .

* * *

وبين الأوس والخزرج منذ استقروا فى يثرب صراع قوى على المجد

(١) نشرت بمجلة الحج سنة ١٣٧٠ هـ .

المادى والأدبى أوجدته العصبية الجاهلية التى كانت تمشى فى أرجاء الجزيرة العربية كما يمشى الوباء ، وتسرى بين القبائل والبطون كما تسرى الهواجس والظنون ، بل كما تسرى النار فى الهشيم ، لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وكثيرا ما أدت هذه العصبية بين الأوس والخزرج إلى حروب دامية لم تكن تهدأ حيناً إلا لتبدأ من جديد قوية عنيفة ، وكان آخر هذه الأحداث ما وقع بين الفريقين فى يوم بُعاث ، وهو يوم مشهود فى تاريخ الأوس والخزرج هلك فيه قادتهم ورؤساؤهم وتصدعت قوتهم ، وتعرض مركزهم فى يثرب للدمار والانهيار ، وابتدأ جيرانهم اليهود يقيمون على أنقاض هذا الضعف قوة كبيرة جعلت الأوس والخزرج يعضون بنان الندم ، ويحسون بالخطر الداهم يحيط بهم ، ويتلفتون ذات اليمين وذات الشمال إلى القطب المرشد ، والربان المنقذ والمرفأ الأمين . .

* * *

وفى وسط هذا الشر المطبق والفتن المتكاثفة ومن خلال هذا الضباب المتراكم ، لاح بريق الأمل ، وأقبل الحق المطارد فى مكة يسعى إلى يثرب ، يسوقه الباطل بجحافله كما تسوق الرياح الصيب الهتون . . وجاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بالهدى والرشاد فقضى على الفرقة وجمع الشتات ، وأحيا الله به القلوب الموات (وألَّف بين قلوبهم لو انفقْت مافى الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله الَّف بينهم إنه عزيزٌ حكيم)

وكان من الطبيعى أن يحول الإسلام ذلك التيار القوى الذى يغذى العصبية القبلية فى نفوس الأوس والخزرج إلى وجهة كريمة هى الغيرة المحمودة والتنافس الشريف الذى يسعى إلى أجل قصد وأنبل غاية ، وهى إعلاء كلمة

الإسلام والقضاء على أعدائه الألداء فى كل مكان . . فصار الأوس والخزرج يتجهون إلى هدف واحد هو إرضاء الله ورسوله ولكن يتسابقون فى هذا السبيل ويتنافسون ، ويأبى كل فريق منهما أن يسبقه الآخر بميزة ، أو يتقدم عليه بفضل ، أو يزيد عنه فى تضحية وجهاد وفى هذا يقول ابن هشام فى سيرته نقلا عن ابن اسحق « وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين لا تصنع الأوس شيئا فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غناء إلا قالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك » . .

ولاغرو أن مظاهر هذه المنافسة الكريمة بين الفريقين كثيرة تفيض بها كتب السيرة والتاريخ وقد يكون من حق القارىء أن يتساءل عنها جميعاً ولكنا — رعاية للمقام — نكتفى باستعراض صورة واحدة هى قصة مقتل كعب بن الأشرف من يهود بنى النضير ، وقصة مقتل سلام بن أبى الحقيق من يهود بنى النضير أيضاً ، ففى هاتين القصتين يجد القارىء صورة واضحة لهذا التنافس الكريم .

* * *

وذلك أن الأوس كان لهم الفضل والشرف الأكبر بقتل عدو الله كعب بن الأشرف ، وإنما قتله الأوس جزاء غدره وخيانته وظلمه وعدوانه ومن ذلك أنه حينما علم بانتصار المسلمين فى غزوة بدر جزع وحزن ، وتألم وتبرم ، وقال لمن معه من أصحابه « أترون محمداً قتل هؤلاء؟ — يعنى المشركين الذى قتلوا يوم بدر — إنهم أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد

أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » . ثم انطلق عدو الله حتى قدم مكة وجعل يحرض على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر ، ومما يروى فى ذلك قوله :

طنحت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لاتبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذى بهجة تأوى إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع (١)
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدّع

إلى أن يقول مهيجا الشعور ضد المسلمين :

نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمى على الحسب الكريم الأورع

ولم يكتف كعب بن الأشرف بتحريض المشركين فى مكة ، بل إنه رجع إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى أوذى المسلمون وضجروا . وحتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من لى بكعب بن الأشرف ؟ فأجابه من الأوس محمد بن مسلمة قائلا : أنا لك به يارسول الله ، أنا أقتله ، قال : فافعل إن قدرت على ذلك ، ففكر ابن مسلمة فى هذا الأمر وأعد له عدته مع طائفة من إخوانه ، فاجتمع فى قتله خمسة رجال من الأوس هم : محمد ابن مسلمة ، وسلكان بن سلامة أبو نائلة « وكان أخا كعب من الرضاعة » .

(١) أصلها أن ابن الاشرف كعبا ظل يجزع فاخر (كعبا) لضرورة الشعر .

وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ، وقد ذهبوا إلى منزله ليلا واستدرجوه إلى الخارج حتى اطمأن إليهم — والحرب خدعة — ثم صاح أبو نائلة قائلا : اقتلوا عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم حتى وقع صريع غدره وبغيه ، وفى ذلك يقول كعب بن مالك :

وغُودر منهمُ كعب صريعا فذلّت بعـد مصرعه النضير

* * *

ولقد كان هذا الحادث الجللُ مظهر تضحية وإيمان من جانب الأوس وأساس مجد وفخار لهم وحينئذ عز على الخزرج أن يسبقهم الأوس إلى هذه التضحية ، ويصلوا إلى مثل تلك الغاية دونهم فقالوا : « والله لايذهبون بهذه فضلا علينا أبداً فتذاكروا من رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا سلام بن أبى الحقيق فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله فأذن لهم » ..

وسلام بن أبى الحقيق من يهود بنى النضير أيضاً ومن الأعداء الألداء للاسلام والمسلمين .

وقد رحل إلى خيبر بعد أن طرد الرسول بنى النضير من ديارهم فى السنة الرابعة من الهجرة ، ومنذ ذلك الوقت أخذ سلام يثير النفوس دائما ضد المسلمين حتى أنه ذهب على رأس وفد إلى مكة يحرض قريشاً على قتال محمد صلى الله عليه وسلم ويحزب الأحزاب عليه ، ولقد قالوا لقريش : إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله فقالت قريش : « يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خيرمن دينه وأنتم أولى بالحق » وقد فرحت قريش بهذا القول من اليهود واستجابوا لدعوتهم وجمعوا جموعهم وتجهزوا لحرب الرسول

صلى الله عليه وسلم ثم جاء اليهود إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها ، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوافقوهم على حرب المسلمين وتجهزوا لذلك . . وكانت غزوة الأحزاب وفيها ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، ولولا لطف الله لاقتحم المشركون عليهم المدينة ، ولتغيَّر وجه التاريخ . .

فليس بغريب بعد هذا كله أن يرى الخزرج فى ابن أبى الحقيق العدو المبين الذى لا يقل عن صاحبه كعب بن الأشرف فى الكيد للاسلام والمسلمين وهنا تحركت الغيرة الكريمة فى نفوسهم وأرادوا أن يلحقوا بإخوانهم الأوس فيما قدموا من تضحية وما سبقوهم به من فضل وشرف ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله فأذن لهم .

وقد خرج إليه من الخزرج خمسة نفر أيضا هم عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، والحارث بن ربعى ؛ وخزاعى ابن أسود حليف لهم من أسلم ، وقد أوصاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يقتلوا وليداً أو امرأة ، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلا .. يقول قائلهم « فلما دخلنا عليه ابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا فوالله ما يدلنا عليه فى سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية ملقاة ، قال ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكف يده ، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل . قال فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول قطنى قطنى أى حسبى حسبى » .

وهكذا كانت نهاية ابن أبى الحقيق كما كانت نهاية صاحبه ابن الأشرف من قبله ، وهكذا تكون نهاية الغدر والخيانة والظلم والعدوان ، وفى هذا يقول حسان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب الأشرف وسلام بن أبى الحقيق . .

لله در عصابة لاقيتهم ... يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحا كأسد فى عرين مغرف
حتى أتوكم فى محل بلادكم ... فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف

***

وبعد فهذه صورة من الغيرة المحمودة والتنافس الشريف بين الأوس والخزرج بعد أن صقل الإسلام نفوسهم وطهرها من شوائب العصبية القبلية البغيضة ، وإن هذا لهو ميدان الغبطة والتنافس الرشيد الذى يسعى إلى نصرة الحق و القضاء على أعدائه ومناوئيه .

وما أجمل الغيرة التى تحمل صاحبها على أن يلحق بأخيه فى البر والخير دون حقد أو ضغينة ، وما أعظم التنافس الذى يدعو إلى التعاون فى ظلال الإخوة والإخلاص الشامل ... أما إذا تدنست الغيرة بالحسد ، وتلوث التنافس بالأثرة والأنانية فهذا هو الداء العياء الذى يهدد الإنسانية بالويل والشقاء...

فعسى أن يكون لنا فى تاريخ المسلمين الأولين وما ينطوى عليه من مثل كريمة سامية ما يأخذ بأيدينا إلى المعانى الأخلاقية الفاضلة التى كانت تفيض بها نفوس إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

الثلاثة الذين خلفوا (١)

ثلاثة نفر أخلصوا لله وجاهدوا فى سبيله ، وشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من المشاهد والغزوات ، وكان لهم فى تاريخ الإسلام بلاء مشكور وجهاد مبرور ، أولئك هم كعب بن مالك وهلال بن أمية الواقفى ومرارة ابن الربيع العمرى رضى الله عنهم أجمعين .

ولكن الله الذى يمتحن عباده بالمحن والبلاء قد ابتلى هؤلاء الثلاثة بمحنة لولا لطف الله لعصفت بإيمانهم وطوحت بهم فى مهاوى الهلاك والشقاء ، وكثيراً مايبتلى الله عباده ليميز الخبيث من الطيب ويظهر الزائف من الصحيح والدخيل من الأصيل ، وقد قال تعالى « ولنبلُوَنكمْ حتى نعلمَ المجاهدين منكمْ والصابرينَ ونبلُوَ أخباركُمْ » ثم يكون الجزاء فى النهاية على قدر البلاء وبحسب الصبر والرضا بالقضاء . ولا غرو فقد قال تعالى « وبشرِ الصابرينَ » وقال « إنما يوفَّى الصابرُونَ أجرهم بغيرِ حسابٍ » .

***

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة وكان الحر شديدا والسفر بعيدا والعدو قاسيا عنيدا ، وناهيكم بجيش جرار من الروم يتربص الدوائر بالمسلمين ويستعد لا للدفاع بل للهجوم ، وقد استجاب لدعوة الحق رجال من المسلمين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنفروا للجهاد سراعا يضربون فى البيداء المترامية ويعبرون الصحراء القاسية بين الحر المرمض والسموم اللافح لا يكترثون بوعثاء السفر ووعورة الطريق ،

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية ١٣٦٩ هـ .

ولا يثنيهم من غايتهم ما يحيط بهم إذ ذاك من المتاعب والمخاوف والأراجيف التى يذيعها المنافقون ، بل يجدون فى طاعة الله ورسوله أمنا وسلاما وظلا ظليلا دائما يغنيهم عن ظلال الدنيا الزائلة ومتاعها الفانى القليل . !!

ولعل مما يصور لنا عظمة الروح وقوة العقيدة فى نفوس أولئك المؤمنين ما وقع لأبى خيثمة الأنصارى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقد تخلّف عن المسير مع إخوانه المجاهدين أياما ثم رجع إلى أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيإ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصف ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيئا لى زادًا ففعلتا ، ثم قدم ناضحة فارتحل ، ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك .

* * *

وقعد عن الجهاد قوم من المنافقين كانوا قد أظهروا الإسلام ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، وكانوا بضعا وثمانين رجلا غلبت عليهم شقوتهم وأصاخوا لدعوة الشيطان ، فتركوا دون عذر ميدان الجهاد لأنهم يحبون العاجلة وهم أحرص الناس على حياة ، ويظنون أن أمرهم سيخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى إذا رجع المسلمون من ميدان الجهاد قاسموهم فى السراء دون الضراء ، وشاركوهم فى المغانم دون أن يشاركوهم فى المغارم .

ولم يتخلف عن الجهاد من المؤمنين المخلصين سوى كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وهم الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم فى صدر

هذا الحديث وهم الذين سماهم الله فى كتابه العزيز بـ « الثلاثةِ الذينَ خلفُوا » وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفهم أى أرجأ أمرهم إلى أن يقضى الله فيهم بأمره .

ولقد أخطأ هؤلاء الثلاثة ثم لم يلبثوا أن تابوا ورجعوا إلى الله وأنابوا فقبل الله توبتهم وغفر لهم خطيئتهم والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

* * *

ولقد روى لنا كعب بن مالك قصته وقصة صاحبيه منذ تخلفوا عن ركاب إخوانهم المؤمنين المجاهدين إلى أن انجلى ليل محنتهم وآذن الله رسوله بقبول توبتهم ، وهانحن أولاء نلخص لكم بمعناها لكى نقف معكم على سرها ومغزاها

يقول كعب : إنه كان يتنقل فى المدينة منذ خرج إخوانه للجهاد فيحزنه ألا يرى فى طرقاتها إلا طفلا صغيراً ، أو رجلا ضريراً ، أو شيخاً مهيض الجناح ليس عليه فى تخلفه جُناح ، ولا يرى أحداً قد تخلف من الشباب والرجال الأقوياء سوى أهل النفاق والرياء .

ويقول كعب : إن الرسول حينما رجع من تبوك دعانى حتى جئت بين يديه ، فسألنى عن أمر تخلُّفى وهو يَتَبَسَّم تبسم المغضب ، فاعترفت بذنبى ولم أفتر الكذب وأختلق الأعذار كما فعل غيرى من المتخلفين المنافقين . ثم دعا صاحبىَّ إليه فاعترفا بذنبهما ، وإذ ذاك أمهلنا الرسول حتى يقضى الله فينا بأمره ، ونهى الناس عن كلامنا حتى تنكرت لنا الدنيا وتغيرت ، وضاقت علينا الأرض بما رحُبت ، ولم يعد لنا ملجأ من الله إلا إليه .

ويقول كعب : إن ملك غسّان النصرانىَّ حينما بلغهُ نبأ محنتى كتب إلىّ يستميلنى إليه قائلاً : « أما بعد قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيعة فالحق بنا نُوَاسك — وكأنما أراد الله أن يزيد فى ابتلائى بمثل هذا الكتاب ، هل أفتتن بالدنيا وزخرفها فأستجيب لدعوة ذلك

الملك النصرانى حيث أقضى أيام الحياة بين العيش الناعم والفراش الوثير ، وليكن بعد ذلك فى الآخرة ما يكون ؟ أم أصبر على مايحيط بى من المتاعب والآلام مهما تتابعت وتلاحقت طمعاً فى رحمة الله وانتظاراً لمغفرته ورضوانه ، وإيثاراً للآخرة حيث السعادة والنعيم والملك الكبير ؟ ولكننى اخترت الباقية دون الفانية ، وآثرت الآجلة على العاجلة ، فقمت إلى كتاب الملك الغسانى فأحرقته فى التنُّور ، وفوّضت أمرى إلى الله الذى إليه تصير الأمور .

ويقول كعب : إن محنتنا استمرت خمسين يوماً متتابعة ما كان أطولها وأقساها ، ولكننا لم نجد ملجأ من الله إلا إليه ، فصبرنا صبراً جميلا ، وجاهدنا أنفسنا جهاداً طويلا ، حتى بدل الله العُسر يسراً ، وجعل لنا من الضيق فرجاً ، ومن الهم مخرجا ، فآذن رسوله بغفران خطيئتنا ، وقبول توبتنا ، وجاءنا البشير بذلك فأتينا إلى الرسول مسرعين ، فوجدنا وجهه يبرق من السرور ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر . وإذا به يتلو علينا قول الله عزَّ وَجل : « لقد تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ والْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الذينَ اتَّبَعُوهُ فِى ساعةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كادَ يزيغُ قُلوبُ فريقٍ مِنهمْ ثمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إنَّهُ بهمْ رَءوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضاقَتْ عليهِمُ الأرْضُ بِما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهِمْ أنْفُسُهُمْ وظنُّوا أنْ لامَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلّا إلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونوا مَعَ الصَّادِقِينَ » .

أما أولئك المنافقون البضع والثمانون فإنهم حينما رجع الرسول من الجهاد قابلوه يحلفون بالله إنهم معذورون ، واللهُ يشهد إنهم لكاذبون ، فلم يلبثوا حتى كشف الله أمرهم ، وَبيَّنَ للرسول عاقبتهم ، وذلك قوله تعالى « سيحلِفونَ باللهِ لكم إذا انقلبتم إليهم لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فأعرضوا عنهُمْ إنهُمْ رِجْسٌ

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

* * *

و بعد ؛ فهذه قصة كعب وصاحبيه ، ومن ثناياها يتجلى لكم مثل رائع من الإخلاص الصادق ، والإيمان العميق ، والعقيدة الراسخة التى لا تعصف بها الحوادث ، ولا تنال منها الكوارث ، ولا يزيدها تطاول الأيام إلا رسوخاً وقوةً ، وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، تهون فى سبيله الصعاب ، ويستعذب من أجله العذاب ، ويستمرأ بإزائه المرّ والصاب .

ومن ثناياها ترون أن الصبر على البلاء ، والاطمئنان للقضاء ، والصُّمود للبأساء والضرّاء عن رضى ويقين ، ذلكم هو السبيل القويم الذى يكفِّرُ الذنوب والآثام ، ويضمن للإنسان البراءة والنجاة « يَوْمَ يَنظُرُ المرء ماقَدَّمت يداه » .

ومن ثناياها ترون أن منطق النفاق كليل ، وسلاحه مفلولَ ، وعمره قصير وحجته داحِضة ، وأنه مهما بالغ فى التستُّر والاستخفاء ، لابد أن تنكشف حقيقته أمام من لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . . .

والمنهجُ القاصد للمؤمن المجاهد ، هو أن يسير فى حياته على أساس من الإيمان الصادق الذى لا يخادع ولا ينافق ، حينئذ يحيا حياة طيبة ويؤتيه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

الإسلام والعصبية (١)

كانت الظاهرة الواضحة لدى العرب فى الجاهلية هى العصبية القبلية ، وهى نعرة أصيلة فى العربى ، توارثها منذ القِدَم عن آبائه وأجداده . وقد نشأت من اعتداده بنفسه إلى درجة الغلوّ والإسراف ، وهو أمر فطر عليه بسبب البيئة الصحراوية الخالية من الأسوار والحصون ، والمعرضة للسلب والنهب . ومثل هذه البيئة لا يمكن أن يستقر بها إلا الشجاع المغامر . وهذه الشجاعة لاتفيد فائدة كاملة ولا تأتى بالثمرة المرجُوَّة إلا إذا دعمت بالعصبية التى تشدّ الأزر وتقوّى الجانب . وهم من أجل ذلك كانوا يهتمون برابطة القرابة ويرعون حقوقها ، لأنها عدّتهم وسلاحهم الذى يقاومون به الأخطار والشدائد ، فكان يرتبط الأقرب فالأقرب منهم برباط المودّة والنصرة . وفى وقت الحروب والثورات يجتمع الأقرب فالأقرب ضد الأبعد فالأبعد ، فتجتمع الفصيلتان من فخذ واحد على فخذ آخر ، ولو كانوا جميعاً من بطن واحد ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ، ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة ، وتجتمع القبائل العربية كلها ضدالأجانب من غير العرب . وفى هذا تحقيق للمثل المعروف « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » وإذن فالعصبية العربية معتمدة على أساس من العصبية القبلية ، فإن

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ وقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً فى كتابنا « الموالى فى العصر الأموى » وتعرضنا لموقف الإسلام من العصبية بوجه عام وهو ما يشمل الشعوبية ثم تتبعنا الصراع بين العصبية العربية والشعوبية إلى أوائل العصر العباسى .

العربى الذى يتعصب لقبيلته ضد القبائل الأخرى هو بعينه الذى يتعصب مع القبائل الأخرى ضد الأعاجم .

والعصبية القبلية كانت تثور كثيراً بين العرب بسبب التنافس بين القبائل على النفوذ المادى والأدبى . أما العصبية العربية فكانت لاتثور إلا عند الاحتكاك بالأجانب . وقد كان ذلك من القليل النادر إذ ذاك . . .

* * *

ولو طوينا القرون القهقرى ، وقلبنا صفحات الزمن إلى الوراء ، وتتبعنا العرب أيام الجاهلية فى صحرائهم المترامية ، وتسمعنا إلى أحاديثهم وأشعارهم بين الأخبية والخيام ، ومن وراء الصخور والرجام ، لراعتنا تلك العصبية القبلية الخبيثة ، التى كانت تجعل من كل قبيلة دولة مستقلة ، لاتقف دون مطامعها المادية والأدبية حواجز أو حدود . وطالما ثارت الحروب بين القبائل من أجل تلك المطامع ، فأزهقت الأرواح ، وسالت الدماء ، وتناثرت الجثث والأشلاء . ومن ذلك ماوقع بين خُزَاعة وجُرْهُم ، وبين بكر وتَغْلِبَ ، وبين الأوس والخزرج ، إلى غير ذلك من سائر الأحداث الكبار الجسام .

وإلى جانب هذه العصبية القبلية البغيضة كانت العصبية العربية ، فكان العرب على الرغم من تأخرهم فى الأخذ بأسباب المدنية فى ذلك العصر الجاهلى يغالون فى تقدير أنفسهم ويحتقرون الأجناس الأخرى ، دون مبرر أو مسوغ من العقل أو المنطق السليم . وحسبنا أن نعرض لكم صورتين تلمحون فى كلتيهما العصبية العربية سافرة متحدية :

فيروى ابن خلدون أن كسرى أبرويز أراد خطبة بنات العرب ، فأشار عليه عدى بن زيد أحدُ تراجمته بالخطبة من بنى منذرٍ ، فقال له كسرى : اذهب إليهم فى ذلك ، فقال : إنهم لاينكحون العجم ويستريبون فى ذلك ،

فابعث معى من يفقه العربية ، فلعلى آتيك بغرضك ، فلما جاء إلى النعمان قال له النعمان : أما فى عين السداد وفارس ما يغنيكم عن بناتنا ؟ وسأل الرجل عن العين ؟ فقال له هى البقر ! فلما رجع إلى كسرى وأخبره الخبر غضب كسرى وحقدها على النعمان ، وكتب إليه يستقدمه . فلما وصل إلى كسرى قيده وأودعه السجن ، إلى أن هلك فيه بالطاعون ، وفى رواية أخرى أنه قتله ، وكان هذا سبباً لقيام حرب ذى قار بين الفرس والعرب قبل البعثة بثمان سنوات .

ولاشك أن هذا النص يوضح لنا عصبية العرب فى جاهليتهم ضد الأعاجم ، واعتدادهم بأنفسهم حتى فى الوقت الذى كان الفرس فيه ذوى نفوذ كبير ، ولم يكن العرب بجوارهم شيئاً مذكوراً ؛ وهو يلقى لنا ضوءا على مدى تلك العصبية المغالية ، التى تترفع عن مصاهرة ملوك الفرس ، وهم إذ ذاك أصحاب الأمر والنهى بالحيرة ، ولهم فيها النفوذ الواسع والسلطان الكبير .

وذكر صاحب العقد الفريد أن النعمان بن المنذر قدم على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا عن ملوكهم و بلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارسَ ولا غيرَها ، وامتدح العرب بالعزّ والمَنَعة ، فقال : حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجُنَّتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذْ غيرهم من الأمم عزُّهم بالطين والحجارة وجزائر البحور ؛ وذكر النعمان بعد ذلك كثيراً من المزايا والفضائل التى اختُصَّ بها العرب دون غيرهم من الأمم ، وقد سجلتها كتب الأدب والتاريخ فى حديث طويل لا محل لذكره الآن . ولا يهمنا من هذه القصة — وغيرها كثير — تصحيح نظرية العرب فى أنهم يفضلون غيرهم من الأمم الأخري ، ولكن المهم أن هذه القصة تدل على اعتداد العرب بأنفسهم وتحقيرِهم لغيرهم .

فماذا كان موقف الإسلام إزاء ذلك ؟

ظهر الإسلام فى هذا الظلام الحالك ، وبين تلك الأعاصير الحمقاء ، فأشرف على العالم بدستور قوى متين ، يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وينشر العدل والمساواة بين جميع الأمم والأفراد ، وينظم العلاقات بين الفرد والجماعة ، وينفى الفوارق بين العرب والعجم . وهكذا جاء حافلاً بالفضائل ، كفيلا بإنقاذ الناس والسير بهم إلى شاطىء الأمن والسلام . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب قريشاً ، حينما أتم الله عليه نعمته بفتح مكة ، فيقول : « يا معشرَ قريش ، إن اللهَ قد أذهبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتعاظُمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب . ثم يتلو قولهَ تعالى : « يأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . وفى حَجة الوداع ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته فيقول : « أيها النَّاس ، إنّ ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدمَ وآدمُ من تراب ، أكرمُكم عند الله أتقاكم ، وليس لِعربىّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى » .

ولم تكنْ هذه المبادىء الإنسانية العادلة قولاً مأثوراً أو كلاماً مسطوراً فحسب ، ولكنها كانت حقيقةً واقعةً ، تجلّت فى جميع أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه المخلصين ، إذ انمحت من نفوسهم تلك المبادئ الهدامة ، فكانوا لا يفرقون بين قرشى وباهلى ، ولا بين عربى وعجمى . ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم المخلصين من الأعاجم فى صف المخلصين من العرب جنباً إلى جنب ، وكتفاً إلى كتف ؛ فبلال الحبشىُّ كان من خاصة المقربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر المسلمين ، وقد رفعه الرسول بإخلاصه وبلائه فى الإسلام إلى أعزّ مكانة وأسماها . وسلمانُ الفارسى

كان من المقربين لرسول الله ولسائر المسلمين ، وهو الذى ولى قَسْمَ الغنائم بين المسلمين فى واقعة جَلُولاء ، حتى لقد أَنْسَته عدالة الإسلام جنسيته ، فكان يقول مفتخراً : « أنا ابن الإسلام » ؛ وصهيب الرومى كان أيضاً من المقرَّبين من رسول الله ومن سائر المسلمين ، وهو الذى قدمه عمر بن الخطاب على المهاجرين والأنصار ، فصلى بالناس إماماً ، وفى ذلك كل الإجلال والتقدير .

ولقد كانت هذه المبادىء الإسلامية العادلة التى نادى بها الرسول ، ونفذها هو وأصحابه المخلصون فى جميع تصرفاتهم ، سبباً فى إعلاء العصبيتين (القبلية والعربية) وتوجيههما إلى الناحية الصالحة المستقيمة ، فلقد تحوَّل ذلك التيار الذى كان يغذيهما إلى تغذية عصبية أخرى ، هى العصبية الإسلامية ، التى تجعل المسلمين خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجتْ للنَّاس ، وتجعل التقوى والعملَ الصالح مناطَ الفخر ، ودعامة المجد والشرف ، وتجعل فى الإسلام ما يغنى عن الحسب والنسب ، والرِّياش والنَّشَب ، والتى تتمثل فى قول الشاعر المسلم :

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأَوْلى عباد الله بالله مَنْ شَكَرْ

وقول الآخر :

أَبِى الإسلامُ لا أَبَ لى سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تَميم

* * *

ولكن لم تكن هذه العصبية الإسلامية واضحةً فى نفوس المسلمين على السواء ، بل كانوا يتفاوتون فى ذلك على قدر تفاوتهم فى التمسك بذلك الدين الجديد والاقتناع بمبادئه . فلقد رُوى أن أبا بكر رضى الله عنه بلغه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمرٌ ، فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان

يتملقه ويتذلل له ، وأقبل أبو قحافة (والد أبى بكر) ، وكان قد أسلم إذْ ذاك ، فسأل : على من يصيحُ ابنى ؟ فقيل له : على أبى سفيان ، فدنا من أبى بكر وقال له : أعَلَى أبى سفيان ترفع صوتَك ؟ لقد تعدَّيتَ طورك ، وجُزْتَ مقدارك ، فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال : يا أبَتِ ، إنّ الله رفع الإسلام قوماً وأذلَّ به آخرين .

* * *

ومنذ ذلك الزمن إلى هذا العصر الذى نعيش فيه . تظهر العصبية الإسلامية فى نفوس بعض المسلمين فلا ينظرون إلى الرتب والألقاب والجاه والسلطان ، بل يقيمون تقديرهم للأمم والأفراد على أساس من التقوى والإيمان ، وتختفى العصبية الإسلامية أو تضعف فى نفوس الآخرين فيعبدون الأصنام ، ويتقادون للأوهام وتفرقهم الأهواء الباطلة والشهوات الزائلة ، وبين هذين الفريقين من الناس صراعٌ قوى وتنابذٌ وخصام وحرب سجال إلى أن يأذن الله للباطل بالزوال .

وبعدُ : فقد دعا الإسلام إلى الاتحاد والتضامن ، وحارب كل عصبية تدعو إلى تشقيق الوحدة الإسلامية وتوهين بنائها المتين . فما أحوج المسلمين فى جميع الأقطار والأمصار إلى أن تنمحى من بينهم الفوارق ، وتزول الحواجز ويتحد الهدفُ والغاية . وحينئذ يستطيعون أن يصارعوا تلك المبادىء الهدامة التى تجتاح العالم فى هذا العصر وتهدده بالفناء والزوال (ويومئذٍ يفرحُ المؤمنين بنصرِ اللهِ ينصرُ مَن يشاء وهو العزيزُ الرحيم) .

توزيع العطاء بين المسلمين (١)

في عهد الرسول وخلفائه الراشدين

قال الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

كانت موارد الدولة الإسلامية منذ فجر حياتها تتكون من الغنيمة والفيء والجزية والخراج والزكاة . فالغنيمة : هي كل مال وصل من الكفار للمسلمين على وجه الغلبة والقهر . والفيء : هو كل مال وصل من الكفار للمسلمين عفواً من غير قتال . والجزية : هي مبلغ معين من المال يوضع على الرؤوس ويسقط بالإسلام ، ولا تؤخذ إلا من الذميين ، فلا تؤخذ من مشركي العرب ، لأن هؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، وقد ثبتت بنص القرآن بقوله تعالى قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وكانت تؤخذ من الأغنياء ٤٨ درهماً

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية ١٣٦٩ هـ وبهديها المؤلف إلى وزراء المالية في جميع الأقطار الإسلامية على توالي الأزمنة والعصور .

ومن المتوسطين ٢٤ درهماً ومن الفقراء الذين لا يكسبون ١٢ درهماً ومن عجز منهم كان يخفف عنه . والخراج : هو مبلغ معين من المال أو ما يقوم مقامه من زرع أو ثمر يوضع على الأرض لا على الرؤوس وقد لا يسقط بالإسلام ، والزكاة : هى مبلغ معين من المال أو من الزرع والثمار يؤخذ من المسلمين إذا ما بلغت أموالهم أو تجارتهم أو زرعهم وثمارهم النصاب الخاص .

وكانت هذه الموارد الأساسية تنحدر من منابعها المختلفة ثم تتجمع فى بيت مال المسلمين ، ويقوم بالإشراف عليها وتدبير شؤونها الحاكم الأول للدولة الإسلامية ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده وكانوا جميعاً يسيرون فى توزيع تلك الأموال وتقسيمها بين المسلمين على ضوء من هداية الله وإرشاده ، ويضمون إلى ذلك خبرتهم وخبرة أصحابهم بالبيئة التى يعيشون فيها وتقديرهم جميعاً للجو الذى يحيط بهم ، فكان خمس الفىء والغنيمة يقسمان كما أمر الله تعالى خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، وسهم لذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، وسهم لليتامى وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل . وكانت أربعة أخماس الغنيمة تقسم بين المحاربين للراجل سهم وللفارس سهمان ، وأما أربعة أخماس الفىء فتبقى رصيداً فى بيت مال المسلمين يضاف إليه ما يتجمع بعد ذلك من الجزية والخراج والزكاة .

* * *

. . ولقد كانت الرقعة الإسلامية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيرة لا تتعدى شبه الجزيرة وكانت موارد بيت المال إذ ذاك محدودة ضئيلة

لا تكاد تسعف المسلمين بجميع ما يلزمهم فى جهادهم وكفاحهم لإعلاء كلمة الحق والدين ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على الرغم من ذلك يصرف بيت المال بتدبير حكيم يهدف دائماً قبل مصلحة الفرد إلى مصلحة الجماعة حتى لقد كان يسخط عليه أحياناً بعض السفهاء من الناس أو قصار النظر أو ضعفاء الإيمان ، ولكن لا يابثون حتى يتبين لهم بعد نظر الرسول صلى الله عليه وسلم وسداد رأيه ، ومن ذلك ما وقع عقب غزوة حنين حينما أعطى الرسول لبعض المسلمين من الأنصار عطاء سخياً ميزهم به على غيرهم ، لكى يتألف قلوبهم إلى الإسلام ، فتحدث قصار النظر من الأنصار بعضهم إلى بعض وقالوا : لقد لقى رسول الله قومه ، ويقصدون بذلك أن العصبية القبلية هى التى جعلت الرسول يميز بعض هؤلاء القرشيين ، فلما بلغت تلك المقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الأنصار وخاطبهم قائلا « يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فبكى الأنصار من فرط تأثرهم بكلام الرسول وأدركوا مدى خطئهم وقالوا « رضينا برسول الله قسما وحظاً »

* * *

وكان أبو بكر رضى الله عنه يتحرى العدالة الكاملة فى توزيع العطاء بين المسلمين ، فلم يكن يفضل أحداً على أحد حتى ليروى أنه جاءه مال كثير قسمه

بين الناس ، فأصاب كل إنسان عشرين درهما ، فجاءه ناس من المسلمين فقالوا يا خليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والفضل والقدم بفضلهم ؟ فقال : « أمّا ما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم ، فما أعرفنى بذلك وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

* * *

وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اتسعت رقعة الإسلام كثيرا بسبب الفتوح الإسلامية المتعاقبة ، فنمت الموارد ، واحتاجت المالية إلى مجهود ضخم ، يتناسب مع اتساع الدولة ، ويوازن بين الإيرادات والمصروفات ، على حد التعبير العصرى الحاضر ، فوضع عمر ديواناً سماه ديوان العطاء ، وجعل للعطاء نظاما يخالف نظام أبى بكر فى الظاهر ، ولكنه فى الواقع يتمشى مع العدالة والمساواة . ذلك أنه جعل التمايز فى العطاء بحسب الأسبقية فى الإسلام لا فرق فى ذلك بين العرب والأعاجم ، فإن تساووا فى ذلك ، فبحسب القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال فى ذلك كلمته المأثورة « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » وفى بعض الأحيان كان عمر يفضل فى العطاء بحسب المكانة والمنزلة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعله كان يرى أن الرجل لا تعظم منزلته لدى رسول الله إلا على أساس من التقوى والإيمان الصادق ، فلقد فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف ، بينما فرض لعبد الله بن عمر ـ ابنه ـ ألفين ، فقال ابن عمر لأبيه : « فضلت علىّ أسامة وقد شهدت مالم يشهد ؟ فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ، وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك » .

وهكذا يتضح لنا من سياسة عمر ، أنه قد حاول بقدر الإمكان أن يطبق النظرية الإسلامية ، فلم يجعل التمايز بين الناس على أساس اختلاف القبائل أو الأجناس ، ولكن جعل الأساس هو التقوى والإخلاص ، وكثرة البلاء والجهاد ، وذلك إنما يكون فى الغالب بالسبق إلى الإسلام ، لا فرق بين قرشى وباهلى ، ولا بين عربى وعجمى .

وقد كان سفيان بن عيينة يفسر نظرية أبى بكر ونظرية عمر فى العطاء فيقول : ذهب أبو بكر فى التسوية إلى أن المسلمين إنما هم بنو الإسلام كإخوة ورثوا آباءهم ، فهم شركاء فى الميراث تتساوى فيه سهامهم وإن كان بعضهم أعلى من بعض فى الفضائل ودرجات الخير والدين ، قال . وذهب عمر إلى أنهم لما اختلفوا فى السوابق حتى فضل بعضهم بعضا وتباينوا فيها كانوا كإخوة العلات وهم الإخوة لأب ، ورثوا أخاهم أو رجلاً من عصبيتهم فأولاهم بميراثه أمسهم رحماً وأقعدهم إليه فى النسب وكذلك هم فى ميراث الإسلام أولاهم بالتفضيل فيه أنصرهم له وأقومهم به وأذبهم عنه .

* * *

وأما عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد خالف رأى عمر ، ورجع إلى رأي أبى بكر رضى الله عنه ، وهو التسوية التامة فى العطاء بين المسلمين على اختلاف قبائلهم وأجناسهم ، حتى لقد أنقص عائشة عما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وصيرها أسوة غيرها من نساء الرسول .

وكذلك كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يسوى بين المسلمين فى العطاء ، ولا يفضل سيدا على مسود ، ولا عربيا على عجمى ، حتى لقد تقاعد عن نصرته الكثير من أشراف العرب من أجل ذلك ، ومشت طائفة منهم إليه ، وقالوا يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب

وقريش ، على الموالى والعجم ، فقال لهم : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور ؟

* * *

وبعد ، فهذه صفحة مشرقة تتجلى فيها السياسة الإسلامية الرشيدة ، والتدبير الحكيم السديد ، وتدل دلالة صادقة على ما كان يتجه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من رعاية الصالح العام والحرص على سعادة الجماعة ، كل بحسب اجتهاده وتقديره على أساس من تعاليم الإسلام وفى ضوء مبادئه القويمة .

ولو أن القائمين بأمور المسلمين والأمناء على أموالهم قرءوا هذه الصفحة المجيدة ثم رجعوا إلى أنفسهم وسألوها عما ينتهجون من سياسة ، وما يضعون بين أيديهم من أهداف . لكان لهم فى ذلك عبرة وتبصرة .

ألا إن الحق واضح لا ريب فيه والحلال بيِّن والحرام بيِّن وكل راع مسئول عن رعيته « فأمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحياةَ الدُّنيا فإنَّ الجحيم هىَ المأوى وأمَّا مَنْ خاف مقام ربِّه ونهى النفسَ عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

الإسلام يحارب الفقر (١)

« ١ »

جاء الإسلام الحنيف فأشرف على العالمين بدستور قوى متين يدعو إلى مكارم الأخلاق وكريم العادات ، وينظم العلاقة بين الأفراد والجماعات ، ويصف ما تعانيه الأمم من الأدواء ثم يقدم لها فى يسر وسهولة أنجع الدواء ..

وهذه المشكلات والأمراض الاجتماعية التى تعانى الإنسانية ويلاتها ، وتقاسى آلامها ، والتى طالما أجهد المصلحون أنفسهم فى علاجها ، فنجحوا بعض النجاح حيناً ، وأخفقوا أحيانا ، قد وصف لها الإسلام الدواء الناجع الذى يضمن النجاح من أيسر سبيل وأقوم طريق .. وإنما يستشرى الداء ويعز الدواء من التقصير والإهمال ، وعدم تطبيق مبادىء الدين ، والأخذ بما تنطوى عليه تلك المبادىء من أنظمة وأحكام وقوانين .

* * *

ولقد كان الفقر ولا يزال من المشاكل العالمية المعقدة ، وقد أدرك الإسلام مدى خطره على الأمم والشعوب فأعد لحربه العدة الكاملة ، والقوة الشاملة ، وسلك فى سبيل القضاء عليه جميع الأسباب ، وأوصد دون أضراره كل الأبواب .. وواجهه بأسلحة عديدة يكفى الواحد منها لتوهين بنائه ، بل للقضاء عليه وإفنائه .

فلقد أمر الإسلام بالزكاة وهى الركن الثالث من أركان الدين ، وجعلها حقاً معلوما للفقراء والمساكين ، وأوجب أداءها على كل مسلم يملك النصاب

---

(١) ألقيت هذه الكلمة بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ فى حديثين متتالين

فى النقدين وفى الزروع والثمار وفى الإبل والبقر والغنم وفى عروض التجارة ، وتوعد من يمتنع عن أدائها بالويل والثبور ، وأعد له عذاب السعير ، فقال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة (يعنى لا يؤدون زكاتها) ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »

وجعل إيتاء الزكاة من أسس الفلاح والإيمان فقال « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون »

وبين الله عز وجل أن الإنفاق فى سبيل الله هو التجارة الرابحة التى لا ينمو فيها رأس المال إلى عشرة أمثال فحسب ، بل إلى سبعمائة ، بل يضاعفه الله أضعافاً كثيرة ، وذلك حيث يقول « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما . اللهم أعط منفقا خلفا . ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا »

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً رجلين أحدهما بخيل يضن بمال الله على عباد الله ، والآخر متفق يعطى مما أعطاه الله فقال كما جاء فى الصحيحين « مثل البخيل والمتفق كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد من ثُديهما إلى تراقيهما ، فأما المتفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع » ومعنى ذلك أن المنفق كلما بذل المال فى سبيل الله وسع الله عليه بزيادة رزقه ، أو بالقناعة التى تجعل القليل كثيرا

وفيرا ، وأن البخيل فى ضيق من نفسه الكزّة وطبيعته الشحيحة فهو مهما زادت أمواله وكثرت أرزاقه فى ضنك وشقاء و بؤس وعناء .

***

. . ولكى يمعن الإسلام فى محاربة الفقر ويتخذ كل الوسائل فى سبيل القضاء عليه جعل الإحسان إلى الفقراء والمساكين كفارة للخطايا والذنوب ، وستاراً للآثام والعيوب ، فكفارة اليمين إذا ما حنث فيه الإنسان هى إطعام الفقراء والمساكين ، وفى ذلك يقول الله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كِسْوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » .

والرجل إذا ظاهر من امرأته بأن قال لها أنت على كظهر أمى حرمت عليه ولا يحل له أن يقر بها إلا بعد الكفارة ، والكفارة تكون بإطعام الفقراء والمساكين ، وقد ذكر الله ذلك فى قوله » والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » .

ومن أفطر بالجماع فى نهار رمضان لزمته الكفارة وهى عتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا .

وهكذا يكفّر الإحسان إلى الفقراء الذنوب والآثام ويغسل الخطايا

والأوزار ، ولا غرو فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » .

* * *

والإسلام ليس ألفاظا تجرى على اللسان ، ولا أدعية تتلى فى المساجد والمعابد ، وليس الإسلام ركوعا وقياما ، ولا حجا وصياماً فحسب . . إنما الإسلام عاطفة إنسانية ، وإحساس بآلام الناس وآمالهم ، ومشاركة لهم فى شعورهم ، وتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وأخوة كاملة تجعل الصغير بجوار الكبير ، والقوى إلى جانب الضعيف كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومن عجب أن يغيب عن أذهان الكثيرين من المسلمين كنه هذا الدين وحقيقته ، فتراهم يواظبون على الصلاة النافلة بلهَ المكتوبة ، ولا يقتصرون على صوم رمضان بل يصومون أياما فى كل شهر من شهور العام ، ويطوفون بالبيت العتيق كل يوم مرة أو مرتين ، وهكذا ينفذون أوامر الله مادامت لاتكلفهم شيئاً من المال . فإذا جاء دور الزكاة والإحسان إلى الفقراء ، والإنفاق فى سبيل الله ولَّوْا فرارا ، بل أعرضوا عن الحق وأصروا واستكبروا استكبارا ، وترى الرجل منهم وهو يمشى على الذهب ، ويتبختر ويختال بين الحرير والفراش الوثير ، ويبعثر الأموال لإشباع الشهوات الدنيا ، والملذات الشيطانية الخبيثة ، ومع ذلك يضن بالمال اليسير على البائس الفقير ، وإذا ماحاولت أن تستصرخ همته (الوانية) نحو إغاثة المعوزين وإعانة المحتاجين . وقلت له فلان فقير يستحق العطف والرعاية ، أجابك فى تبجح واستهتار « رزقه على الله » « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » . وكأنما

يظن أولئك السفهاء أن الله سينزل على الفقراء مائدة من السماء ، فياللعجب !! وياالله لهذا المنطق السقيم والطبع الخبيث اللئيم .

* * *

ولقد خلقَ الله الناس درجات فجعل الغنى والفقير ، وقسم الحظوظ بين عباده فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكنه مع ذلك أمر الأغنياء بالإحسان إلى الفقراء ، وحث ذوى الثراء على مساعدة المحتاجين والبؤساء ، وذلك كى ينتظم العالم وتسود المحبة بين الناس ويعم الوئام والصفاء .

وقد روى على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنيائهم . ألا وأن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليما » .

وإنه لحقٌّ على الأغنياء فى كل زمان ومكان أن ينقذوا أنفسهم من الحساب العسير ومن عذاب السعير ، وأن يستجيبوا لله وللرسول ويجعلوا فى أموالهم ذلك الحق المعلوم للسائل والمحروم ، وبذلك يؤدون واجبهم نحو الدين ويساهمون فى تخفيف آلام الإنسانية « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

فى حديثنا السابق بينا كيف حارب الإسلام الفقر، ورأينا كثيراً من الأسلحة التى شهرها الدين الحنيف فى وجه ذلكم العدو الألد، وقلنا إنَّ أمضى سلاح سدده الإسلام إلى وجه الفقر، وشرعه لإنقاذ الناس من ويلات البؤس ومرارة الحرمان، إنما هو الزكاة التى تجعل للفقراء حظًّا مقسوماً ونصيباً معلوماً فى أموال الأغنياء، والتى هى مائدة الله فى الأرض يجريها سبحانه رزقاً سائغاً « للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ».

* * *

والإسلام حينما شرع هذه الأصول الحكيمة لمعالجة أمراض المجتمع، قد اتخذ الحيطة الكافية التى تضمن نقاء الجسم الإنسانى وصفاءه، حتى لا يتخلص من شر ليقع فى شر أكبر، أو يبرأ من داء لتحيط به أدواء، وإلا كان التشريع ناقصاً وقائماً على أساس غير سليم، ومعاذ الحق أن يكون ذلك من العليم الحكيم.

أجل، فإن الإسلام يدعو القوىَّ أن يساعد الضعيف، ويهيب بالغنى أن يعاون الفقير. ولكنه فى الوقت نفسه دين العزَّة، دعا إلى احترام النفس وحفظ للإنسان كيانه، وأشفق على المسلم من المذلة والمهانة، وضنَّ بماء وجهه أن يراق على الرَّغام. ويتبدَّد بين أيدى الطغاة اللئام، فلقد دعا كل إنسان إلى أن يأكل من كسب يمينه وعرق جبينه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ومن ذلك ما جاء فى صحيح البخارى عن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » . وثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان زكريا عليه السلام نجاراً » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتغل بالتجارة ويشتغل كذلك برعى الغنم ، وقد ذكر ذلك عن نفسه وعن بعض الأنبياء فقال : « بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد » . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قيمة المتفق المتصدق إلى جانب المتصدق عليه وذلك ما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما « اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هى المنفقة واليد السفلى هى السائلة »

فالإسلام لا يحارب الفقر بدعوة الأغنياء الموسرين إلى البر والإحسان فحسب ، ولكنه يحارب به كذلك بدعوة الفقراء إلى العمل ، ونبذ البطالة والكسل ، حتى لا يكونوا عالة على المجتمع وسوساً ينخر فى عظامه ، وبهذا العلاج القوى الفعال يمكن أن يُسْتَأْصل ذلك الداء العياء ، إذ تجتمع ضده قوتان ، ويهاجم من ناحيتين ، ويقع فريسة بين عدوين ، الأموال التى ينفقها الأغنياء فى سبيل الله ، وكفاح الفقراء وعملهم فى سبيل الحياة ، فلا يلبث الفقر أن يزمع الرحيل إلى غير مآب ، تاركاً وراءه مجتمعاً نظيفاً قوياً يَنْعم بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

ولقد ضرب أسلافنا الأولون رضوان الله عليهم أروع الأمثال فى هذا السبيل ، فكانوا يكرهون البطالة ، ويأنفون أن يكونوا كَلاً وعاله ، والتاريخ الإسلامى مشرق بسيرتهم ، عَطِرٌ بأنبائهم ، ومن ذلك قصة عبد الرحمن ابن عوف المهاجرى مع سعد بن الربيع الأنصارى رضى الله عنهما فلقد آخى

رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما بعد الهجرة إلى المدينة ، وكان معنى هذه الأخوة أن يتعاون الأنصار مع المهاجرين لا تعاون الصديق مع الصديق فحسب بل تعاون الأخ الصديق مع أخيه الشقيق ، وقد أراد سعد بن الربيع أداء لواجب هذه الأخوة أن يقسم بيته وماله مع عبد الرحمن ، بل لقد أراد أن يطلق إحدى زوجتيه لتكون زوجة لعبد الرحمن ويكتفى هو بزوجة واحدة ، ولكن عبد الرحمن بن عوف وقد تربى فى كنف العزة الإسلامية ، وهى تلك التى ينطوى عليها قول العزيز الحكيم « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أبى إلا أن يعتمد بعد الله على نفسه ، فقال لصاحبه دُلنى على سوق المدينة ، ثم اشترى شيئاً يسيراً من الزبد وأمهل صاحبه بعض الوقت ثم باعه وسدد ماعليه ، ثم اشترى وباع ، ثم اشترى وباع ، فلم يمض إلا وقت قليل حتى ملأ اسمه الأسماع وملأت تجارته الأصقاع والبقاع .

وفيما يروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلا فقال ماتصنع ؟ قال : أتعبد ؟ قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى ، قال أخوك أعبد منك . وكان أبو سليمان الدارانى يقول « ليست العبادة فى الإسلام أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبَّد » .

وقال لقمان لابنه « يابنى ؟ استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته » وكلمة عمر بن الخطاب المشهورة الخالدة « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة » وكان رضوان الله عليه يقول « مامن موضع يأتينى الموت فيه أحبَّ إلىَّ من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى » .

* * *

وإنه ليروعنا ويملأ قلوبنا أسى وحسرة أن ترى تلكم الجيوش الجرارة من المتسولين ، وأن يسرى ذلك الوباء فى البلاد الشرقية المسلمة إلى هذه الدرجة المخزية المؤلمة ، والإسلام الذى حارب الفقر وقعد له كل مرصد قد حارب التسول كذلك وقطع عليه كل سبيل ، ووضع له حدوداً معلومة لو تجاوزها خرج عن دائرة الحلال ، وألحق بصاحبه الإثم والوبال ، ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة — يعنى ألزم نفسه بأموال يدفعها فى سبيل الإصلاح بين متخاصمين — فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة — يعنى آفة اجتاحت أمواله — فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أوقال سداداً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سداداً من عيش ، فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتا »

فإذا استطاع الفقراء أن يحاربوا الفقر بالجد والعمل دون أن يلجأوا إلى ذل السؤال ومرارة السؤال ، وإذا استطاع الأغنياء أن يحاربوا الفقر بالانفاق والإحسان إلى الضعفاء والمرضى والمحتاجين دون أن يلجئوهم إلى ذل السؤال ومرارة السؤال أو يدعوهم فريسة للبؤس والهوان والحرمان ، أمكن أن يتخلص المسلمون من هذا الوباء ، ويقضى على هذا الداء العياء ، ويعيش المجتمع الإسلامى فى جو مشرق بالطمأنينة ، بعيد عن الحقد والضغينة ، مصفى من الشوائب والمتاعب ، وإن الصبح لقريب ، وما ذلك على الله بعزيز .

بين العلماء والملوك (١)

العلم بمبادىء الإسلام ، ومعرفة ما فيه من أصول وأحكام ، وما ينطوى عليه من أسس أخلاقية ، وآداب اجتماعية ، ونظم إصلاحية إنسانية . . ذلكم هو الهادى فى صحراء الحياة ، والقائد فى ظلمات الحيرة ، وفى مسالك الحياة الوعرة ، وهو المعين والمسلى على حدثان الزمان ، وتنكر الأيام ! .

والعلماء فى هذه الدنيا هم أساة الأرواح ، وأطباء النفوس ، وهم الذين يسمون بالعقول فيعقلون عوجها ، ويشحذون مضاءها ، ويثيرون لها السبيل إذا ما اضطرب الأمر ، وأطبقت دياجير الزيغ والضلال .

ورسالتهم فى تلك الحياة هى الرسالة الإنسانية الخالدة التى لا يستقيم العالم إلا بها ، ولا يهنأ إلا فى ظلالها . ومن أجل ذلك كرّمهم الله جلّ وعلا ، فقال فى محكم كتابه : « يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ دَرَجَات » . وقال : « إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء » .

ومدحهم الرّسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأشاد بفضلهم فقال : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . كما يُروَى أنّ لقمان قال لابنه فى وصاياه : « يا بنىّ جالس العلماء فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء » . وقال بعض الحكماء : « إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره » .

وقد يقول السفهاء من الناس والفقراء فى الإدراك : إن العلماء قد أصبحوا

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية ١٣٧٠ هـ

لا يؤدون رسالتهم ، ولا يقومون بواجبهم ، وإلا فما بال المعاصى لا تزال متفشية ؟ وما بال الأخلاق متدهورة متداعية ؟ وما بالنا نرى أماكن اللهو والفساد بالناس عامرة ؟ وأندية القمار مليئة بالزوار ، وبؤر الفسق والفجور مكتظة بالسكان ، آهلة بالخلان والأخدان ؟ .

قد يقول بعض الناس هذا الكلام فى لهجة متحدية باغية . ونحن نقول لهم : رويدكم أيها الناس وعلى رسلكم . واتقوا الله فى أنفسكم وفى غيركم ، ولا تؤذوا أحداً من الناس سفهاً وبغير علم ، واذكروا جيداً قول الله تعالى : « وَالذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً » .

إن رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن رأى مِنكم مُنكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فإن لم يَسْتَطِعْ فَبِلسانِهِ ، فإن لم يستَطِعْ فبقَلْبِهِ ، وذلكَ أضعفُ الإيمان » .

وما دام العلماء ورجال الدين ليست لديهم سلطة تشريعية ولا تنفيذية ، فهم لا يملكون أن يغيروا منكراً من المنكرات بأيديهم . ولا يطالبهم الدين إلا بشىء واحد هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . وهاهم أولاء بحمد الله فى المساجد والمعابد ودور العلم ، وعلى صفحات المجلات الدينية والأدبية . بل فى كل زمان ومكان منارات هادية ، ومصابيح إرشاد ، ورسل خير ورحمة للعباد ؛ فهم يتواصون بالحق ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويشكرون للمحسن إحسانه ، ويبشرونه بالخير والمغفرة والرضوان الكبير ، ويسجلون على الظالم ظلمه

وعدوانه ، وينذرونه بالويل والثبور وعذاب السعير ، وهم بذلك إنما يبرئون ذمتهم أمام الله ، وَلاَ يكَلّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا .

* * *

والملوك فى هذه الدنيا هم ظلّ الله فى أرضه ، وهم السادة القادة الذين يوجهون سياسة الشعوب ويدبرون شئون الأمم . وهم القلب المسيطر والرأس المدبر ، وهم العدة المحركة والقوّة الدافعة ، وهم للأمة عنوان المجد والفخار ، أو عنوان العار والشنار .. وتستطيع أن تحكم على شعب من الشعوب بالإخفاق أو النجاح إذا عرفت سلوك رؤسائه واتجاهاتهم . وعلمت ميولهم وعاداتهم ، وراقبت أخلاقهم وتصرفاتهم . وقديماً قال ابن العميد : « المرء أشبه شيء بزمانه ، وصبغة كل زمان منتخبة من سجايا سلطانه ، فلقد كان الوليد بن عبد الملك شديد الكلف بالعمارات والأبنية ، فكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات . وكان أخوه سليمان يحب الطعام والنكاح ، فكان الناس فى خلافته إذا التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الطعام والنكاح . وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة وتلاوة ، فكان الناس إذا تلاقوا فى أيامه سأل بعضهم بعضاً : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وكم تقوم من الشهر ؟.

* * *

وبين العلماء والملوك صلة وطيدة ، ورابطة وثيقة .. فالعلماء يبلغون رسالة الله التى نزلت بها الشرائع والأديان ، يبلغونها إلى الأمم والشعوب . والملوك هم الذين يراقبون تنفيذها ، فيكافئون المخلص العامل ، ويعاقبون المقصر الخامل .

وإذا كانت رسالة العلماء هى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . فرسالة الملوك هى حماية تلك الدعوة من عناصر الشرّ ، وأعاصير الضلال ، وحياطتها بما يمنع عنها العوادى والطوارىء ، ويعينها على النموّ والازدهار .

وإذا كان من الحقّ على العلماء أن يحملوا المشاعل ويُضيئوا السبيل ، فمن الحقّ على الملوك والرؤساء أن يُرغموا الناس على ترك الظلام واتباع هذا النور ، ولو بذَلوا فى ذلك أغلى المهور ، وأفدح الأجور ، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

* * *

ولما كان فى صلاح الملوك صلاحُ الرّعية ، وفى فسادهم فسادُ الرّعية ، وهلاك الأمم والشعوب ، جعل الشرع الإسلامى الملوك العادلين ، والرؤساء المقسطين أوّل السبعة الذين يظلهم فى ظله يوْمَ لا ظلّ إلا ظله . وذكر النبى صلى الله عليه وسلم الفرق بين منزلة الإمام العادل ، والإمام الجائر يوم القيامة فقال : « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَىَّ وَأَقْرَبَكم منى مجلساً يوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِمَامٌ عادِلٌ ، وَإِنَّ أَبْغَضَكم إِلَىَّ وأبعدكم منى مجْلساً يوْم القِيامة إمام جائِر » .

فما أسعد الشعب المسلم إذا ما هيأ الله له العلماء العاملين الذين أشرق الإيمان فى نفوسهم ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، ولم يفتنهم عرض الحياة ومتاعها القليل ، بل عرفوا واجبهم نحو الله والناس ، فأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وبلّغوا الأمانة التى حُمّلوها ، يستهينون بالأخطار والشدائد ، ويستعذبون فى سبيل الحقّ كلّ ألم وعذاب .

وما أعظم سعادة الشعب المسلم وهناءته إذا كان على رأسه ملك صالح وإمام عادل ، يستجيب لدعوة العلماء فيحكم بما أنزل الله ، ويلبى أمر مولاه

حيث يقول : « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » .

يومئذ يبرأ المجتمع من الأمراض الخلقية الخبيثة والأهواء الاجتماعية المدمرة ، فلا يسود فيه الزّور والبهتان ، ولا يتغشاه الظلم فى أى لون من الألوان ، ولا يهنأ فى جنباته الشيطان ، بل تشرق فيه المبادىء الإنسانية السامية ، فتلوى عن الغىّ أعناق الجاحدين ، وتضىء القلوب بنور الإيمان واليقين . وفق الله علماء الإسلام وملوك الإسلام إلى الخير والرشاد .

ولا تطع كل حلاف مهين

الشعور بالنقص فى ناحية من النواحى يدفع صاحبه دائماً إلى أن يحاول تغطية هذ النقص وستره بوسائل كثيرة ، وقد يندفع الشخص أحياناً إلى هذه المحاولة دون أن يفكر فى أنها تغطى نقصاً لديه أو تستر عيباً فيه ، ومثل هذا التصرف يكون من عمل العقل الباطن كما يقول علماء النفس فعن طريقه يُصدر الإنسان أعمالاً خاصة ، ثم يحسّ بفائدتها حينما يشعر بأنها قد سترت عيوبه أو أخفت نواحى النقص فيه ، ولذا فإن معظم أولئك الذين ينسبون لأنفسهم مزايا خاصة ، ويتعمدون إيجاد المناسبات التى تُيسِّرُ لهم الحديث عن هذه المزايا ، ويجتهدون فى أن تصل هذه الأحاديث إلى القاصى والدانى من الناس . هؤلاء وأمثالهم إنما يدفعهم إلى ذلك شعورهم بالنقص ، فهم يجعلون من هذا الحديث عن مزاياهم المزعومة ستاراً لما يعتقدونه فى أنفسهم من عجز أو ضعف أو حرمان .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن هؤلاء الذين يعمدون إلى الحلف بسبب أو من غير سبب ، ويدعمون كلامهم بالقَسَم واليمين دون ضرورة تلجئهم إلى هذا القَسم واليمين ، هؤلاء بلا شك كأنهم يحسون أن الناس قد نفذت إلى ضمائرهم وعرفت الحقائق ، فهم يغطونها عن عيون الناس بما يثيرونه من ضباب ودخان ، وأعنى بهذا أيمانهم الكاذبة التى يحقون بها ذلك الزور والبهتان .

***

وإن تعويد اللسان على الحلف بالباطل مفسدة للمرء ومهلكة يهوى بها الإنسان فى الدنيا ، إذ تضيع كرامته بين الناس ويفقد ثقتهم ، ويهوى بها فى الآخرة أيضاً إذ يتعرض إلى مقت من الله وغضب وعذاب .

أجل فإن المرء إذا ما اعتاد الحلف وكثر ترديد القَسم واليمين على لسانه لم يعد ينظر إلى ما ينطوى عليه القَسم من معانى التعظيم لله والتمجيد ، ومايترتب عَلَى الحنث فيه من استهانة وعبث واستهتار . بل صار يردّد القَسم بالله ، وكأنما هو من غير وعى وشعور ، ودون تفكير وتقدير .

ومثل هؤلاء الحلاَّفين كثيراً ما يحنثون فى أيمانهم ، ولا يقدرون مدى الحنث وعاقبته ، ولا يفكرون فى التفكير عن هذا الخطأ والعصيان . وبذلك تكثر الذنوب ، ويَترا كم الصدأ على القلوب ، فلا يحس القلب بهجة الطاعة وجمالها ، ولا ترى النفس نقاء الحق وصفاءه ، بل يختلط الأمر وتُعمَّى المسالك ، وتتفتح أبواب الشرّ والمهالك .

* * *

ولقد وصف الله هؤلاء الحلافين بالمهانة لأنهم أهانوا أنفسهم إذ عرضوها لاحتقار الناس وازدرائهم فى الدنيا ، وعرضوها لعذاب الله فى الآخرة ، وأمرنا الله ألا نتبعهم فيما يحلفون ، ونستمع إلى أقوالهم وما يأفكون ، وإلا حلّ بنا مقت الله وغضبه ، ومقت الناس وغضبهم .

وكم من حلاَّف مهين صنع الأكاذيب ، وافترى الزّور والبهتان ، حتى انطلى إفكه على السفهاء من الناس فاتبعوه ، وحينئذ ضلّ سعيهم ، وسُقط فى أيديهم ، وتردّوا فى هاوية النكال والخسران المبين . وإنا لنلاحظ على كثير من الناس أنهم يحلفون ويقسمون دون مبرّر أو مسوغ من العقل أو المنطق السليم

فترى الشخص يطلب حاجة من زميل له أو من صديق أو من أجنبي فيقول له : (بالله يا شيخ أعطني كذا) ومعنى هذه الكلمة أستحلفك بالله وربما لا يجيبه المسئول إلى ما طلب ، فيكون قد أساء مع الله الأدب . وقد تسأل شخصاً : هل حصل منك كذا ؟ فيجيبك على الفور : « والله يا شيخ ما حصل » دون أن تطلب منه هذا القسم ، وتلك عادة تكاد تكون شائعة لدى الكثرة الغالبة من المسلمين .

وقد يدفع حبُّ الدنيا أقواماً فيكثرون من الحلف بالباطل لترويج بضاعة كاسدة أو لتزيين سلعة راكدة ليشتروا بأيمانهم ثمناً قليلاً وعرضاً ضئيلا ونراهم يفرحون باللذة العاجلة ولا يقدرون سوء العاقبة وشؤم المصير ، ويغطي الشيطان على بصائرهم هذا الزُّور والبهتان فيحسبونه هيِّناً وهو عند الله عظيم .

والمؤمن الذي يستجيب لدعوة الحق ، هو الذي لا يلجأ للحلف إلا عند الضرورة القاسية ، وإذا كان حالفاً فليحلف بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته . وإذا حنث في يمينه فقد أوجب الله عليه كفارة اليمين ، وذلك قوله تعالى : « لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[1] .

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ .

إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (١)

قد يسترسل بعض الناس فى أفكار وخيالات وتتملك نفوسهم هواجس ونزغات من شأنها أن تضعف العقيدة . وتزلزل اليقين والإيمان . وتباعد بين الإنسان وبين رضى الله ورحمته .

فمثلا . يقول قائل من الناس : لماذا خلقنى الله فقيرا وخلق فلاناً غنيا ؟ . ولماذا منّ الله على فلان بالصحة والسعادة وجعل فلاناً مريضا شقيا ؟ ، ولماذا يخص الله بنعمة العلم قوما ويبتلى بالجهل آخرين ؟ ويُضفى على أُناس من رحمته ورضوانه ويحعل غيرهم من المطرودين الملعونين ؟ . . إلى غير ذلك من سائر الوساوس والنزغات والهواجس .

ومثل هذه الأفكار السوداء المظلمة إنما هى نسيج من عمل الشيطان يطوف به على القلوب كى يحجبها عن الحق ويمنع عنها نور الإيمان ، ولقد كان الشيطان — ولا يزال — هو العدو الألد لبنى آدم منذ أخرجه الله من الجنة مذموماً مدحورا ، وغايته فى الحياة أن ينتقم لنفسه من بنى آدم فيضلهم كما ضل ويغويهم كما غوى ، ويهوى بهم إلى النار كما هوى .

والعقلاء من بنى آدم والمؤمنون الذين أنار الله بصائرهم لا تخدعهم حيلُ الشيطان وألاعيبه ، ولا تنطلى عليهم أكاذيبه ، ولا تغيب حقيقته عنهم مهما تسربل بالخفاء . ولبس مسوح الإخوان الأصدقاء .

فهم يرونه حينما يحاول أن يتسلل إلى نفوسهم ليزين القبيح ، ويصحح الزائف ويزيف الصحيح ، ويظهر الناقص المشوه فى مظهر الكمال والجمال .

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ

وهم يرونه حينما يحاول أن يبذر الشرّ بين الابن وأبيه والأخ وأخيه والصديق وصديقه ، كى يقطع الوشائج والصلات ، ويقضى على روح الألفة بين الأسر والجماعات .

وهم يفهمون أساليبه حينما يغير الحقائق فيجعل الحلم جُبنا والتهور شجاعة ويقول عن العصبية الحمقاء إنها عزة وإباء ، وحينما يهمس فى آذان المجاهدين فى سبيل الله لا تنفروا فى الحرّ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . وحينما يقول للمنفقين والمتصدقين : رويدكم وحسبكم ، لا ترموا بأموالكم فى الهواء ، ولا تبعثروها فتتركوا أولادكم فقراء ، وحينما يغرى المرء بارتكاب الفواحش ويقول له : متع نفسك فالحياة فرص وأنت لا تزال فى طور الشباب ، وإذا ما كبرت سنك واقتربت من الموت فارجع إلى ربك تائبا واعمل عملاً صالحا ، والله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . . .

أقول إن العقلاء من المؤمنين لا يقنعهم هذا المنطق الكليل ، ولا تنطلى عليهم مثل هذه الأباطيل ، وإنما يعرفون أنها من عمل الشيطان وشؤم صنيعه فلا يستجيبون له بل يناوئونه ويحاربونه ، ويرمونه بسيفه ويردُّون كيده فى نحره . فيولِّى مدبرا ويرتد خاسرا ويبوء بالهزيمة والنكال ، وفى هذا يقول الله جل وعلا « إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عليهمْ سُلْطَانٌ إلا من اتَّبعكَ من الغاوين » ويقول « إنه ليس له سُلطانٌ على الذين آمنُوا وعلى ربِّهم يتوكلُون ، إنما سُلطانُه على الذين يتولونه والذين هم به مُشركون » .

* * *

فالسلاح الفاتك البتّار الذى يستطيع المؤمن أن يصرع به الشيطان ، إنما هو التقوى والإيمان ، وذلك أن الإيمان المضىء فى قلب المسلم لا يراه الشيطان

نوراً يشرق ، بل يُحِسُّ به ناراً تحرق ، والتقوى التى يتزود بها المؤمن ويعدها ليوم المعاد ، لا يراها الشيطان خير زاد ، بل هى أمامه سُمٌّ زعاف وشوك قتاد وإن مثل الشيطان مثل الهوامِّ والحشرات ، لا يأوى ولا يستقر إلا فى القلوب الخربة ، ولا يتغذى إلا بالأوساخ والقاذورات من الآثام والمنكرات . فمن كان قلبه نظيفاوعامرا بالإيمان كان فى مأمنٍ منْ تسلُّطِ الشيطان وإغوائه ، وفى ذلك يقول الله تعالى « إنَّ الذينَ اتقَوا إذا مَسَّهُم طائفٌ مِنَ الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبصرون » يعنى إن المتقين وهم الذين عمرت قلوبهم بالتقوى ، وجعلوا بينهم وبين النار وقاية إذا طاف الشيطان بنفوسهم لا يستقر فيها لأنهم يتذكرون وعيد الله للمذنبين ، ووعده للمؤمنين المتقين ، يتذكرون ذلك فإذا هم مبصرون قد أفاقوا من غفوتهم يسخرون من الشيطان الرجيم ، ويسيرون فى سبيل الحق القويم .

* * *

ألا إن الشيطان عدوٌّ مبين غادر . وخصم خائن فاجر ، يسلك لفتنتكم — أيها المسلمون — كل سبيل ، ويحارب العقيدة الراسخة فى نفوسكم بكل سلاح ، فلا تأمنوا جانبه واتخذوه عدوًّا . وحاربوه بلا رفق ولا هوادة ، وسبيل ذلك أن تؤدوا واجبكم نحو الله والناس فى ضوء مبادى الإسلام السامية وآدابه الحكيمة ، واذكروا جيدا قول الله تعالى « إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا إنما يدْعُو حزْبه ليكونوا من أصحاب السَّعير » « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

الرشوة والهدية (١)

المال فى هذه الدنيا فتنته وخطره ، والنفس البشرية تعشقه وتهيم به ، ويقودها إغراؤه وسحره ، والله عزَّ وجلَّ يقول فى مُحكم كتابه : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول كما جاء فى الصحيحين « لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ » .

وَحُبُّ الإنسان لنفسه يحبِّب له جمع المال كى يضمن قضاء حوائجه وتحقيق رغائبه ، ولكى يرضى شهوة التملك والاقتناء ، حتى إذا ما اطمأنَّ إلى أن المال الذى جمعه سيكفيه طول حياته أو يزيد عن حاجته ، أقنع نفسه بأنه يجب أن يجمع لأبنائه وأبناء أبنائه وسائر أقربائه .

وهكذا يظل الإنسان سادراً فى مطامعه وأهوائه حتى تدهمه المنيَّة فتنتزعه من لجج تلكم المطامع والأهواء ، وتقوده إلى عدل القضاء بين يدى من لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »

***

وإن الشيطان ليتلمَّس دائما نقطة الضعف فى الإنسان فيأتيه من جانبها

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ

ثم يحاول أن يضربه الضربة القاصمة التى تصميه وترديه ، وتفتنه عن الحق وتغويه .

وقد عرف الشيطان من ابن آدم حبه للمال فجاءه من هذه الناحية يغريه بالشر ويزيّنُ له الضلال ، فتراه يحمله على أكل أموال الناس بالباطل ، موهماً إياه أن هذا العمل حلال مبرور ، مختلقاً فى سبيل ذلك كل بُهتان وزور ، ومن ذلك أن يُزَيّن الشيطان لأقوام أخذ الرشوة ، ثم يبرِّرها لهم بأنها هدية ، والهدية لاشىء فى أخذها ؛ بل يُسَنُّ قبولها ، وقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الهدايا واعتبرها تحية طيبة مباركة .

والواقع أن الهدية شىء والرشوة شىء آخر ، والحلال بيّنٌ والحرام بيّن ، فإذا قدَّمَ لك إنسانٌ سِلعة أو متاعاً أو أىَّ شىء يُقَوَّمُ بمال ، فإن كان يقصد بذلك جلب مودَّة أو تدعيم أُخوَّة وإيجاد أُلفةٍ وصفاء ، فهذه هدية يُسَنُّ لك أن تقبلها ثم تردها إليه فى مناسبة من المناسبات بشكل آخر ، فإن أهدى إليك أرزاً مثلاً فارْدُدْ إليه بقيمته أو بأكثر من قيمته إن شئت تمراً أو عسلاً أو غير ذلك ، والله عزَّ وجلَّ يقول : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها » . ومثل هذا العمل يقوّى رابطة الأُخوّة والصداقة ويُوجد روح التعاون والوفاء .

جاء فى المنتهى وشرحه : « مَنْ قصد بإعطاء لغيره ثواب الآخرة فقط فالمدفوع صدقة ، ومن قصد بإعطائه إكراماً وتوَدُّدًا ونحوه كمحبة فالمدفوع هدية ، وجميع ذلك مندوب إليه ، ومحثوث عليه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « تهادَوْا تحابُّوا » . أما إذا قدَّمَ لك إنسان مالاً أو سلعة أو متاعاً لا يريد به جلب مودَّة أو تدعيم أخوّة وصداقة ، وإنما يريد أن تحابيه وتُقَدِّمه على غيره ، أو تقضى له بما لا يستحق ، فهذا هو الرشوة التى لعن الله آخذها ومعطيها

وإذا جئت إلى إنسان كى يقضى لك مصلحة هى من صميم اختصاصه، ولكنه أهمل فيها وتكاسل فأعطيته مالاً أوما يقوّم بمالٍ حتى يُسرع فى قضاء مصلحتك التى هى من واجبه وفى نطاق عمله الرسمى، فهذا رشوة كذلك، يلعن الله آخذها ومعطيها!

وإذا قدَّم لك إنسان مالاً أو ما يُقوَّم بمال لأنك رئيس أو فى منصب كبير يرجى خيره ويخشى خطره، بحيث لو أنك تترك هذا المنصب لا يقدم لك شيئاً فهذا أيضا رشوة يلعن الله آخذها ومعطيها. ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن أبى حميد عبد الرحمن الساعدى رضى الله عنه قال: «استعملَ النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن اللُّتْبِيَّة على الصدقة، فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى إلىَّ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنى أستعمل الرجلَ منكم على العمل مما وَلّانى الله فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أُهديت إلىَّ، أفلا جلس فى بيت أبيه أو أمه فتأتيه هديته إن كان صادقا، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعرفنَّ أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خُوارٌ أو شاة تَيْعر، ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال اللهم هل بلّغت»

* * *

إن الرشوة شرٌّ ووبال، وداء عضال يُصيب الامم فيقدم الخامل، ويُؤخِّرُ المجدَّ العامل، ويقضى على العدل والإنصاف، وينشر الفوضى والفساد. وهى لا تعدو أن تكون أكلاً لأموال الناس بالباطل، وقد نهى الله عن ذلك فقال: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ»، وتوَعَّدَ الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب النار كل جسم نبت من حرام، وإن الفرق بين الرشوة والهدية واضح يدركه كلُّ من حاسب نفسه واستفتى قلبه وإن أفتاه النَّاسُ وأفتوه،

راقبوا الله فى اليتامى (١)

الإسلام دين البرّ والتّراحم ، والأخوة الإسلامية تقتضى التعاون والتناصر والله عزَّ وَجلَّ يقول : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ والْعُدْوَان » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤمن للمؤمن كالبُنيان يَشُدُّ بعضُهُ بعضا » . وأولى الناس بالمعاونة هو الضعيف حتى يذهب ضعفه ، والذليلُ حتى يُجْبر خاطره ، والمهيض الكسير حتى يلتئم صدعه ، ويقوى جَناحه ، ويذهب حرجه وجُناحه .

واليتيم الذى فقد أباه وهو صغير . ضعيف ذليل ومهيض كسير عصف الموت بالصرح الذى كان يأويه ، والركن الذى كان يمنعه ويحميه ، فغدا وسط الأمواج بغير شراع ، وفى معترك الوجود بلا ساعد وذراع . ولذا فإن الإسلام راعى هذه الحالة ونظر إليها نظرة عطف ورعاية ، فأوجب مساعدة اليتامى ومعاونتهم ، والعمل على ما يُصْلح حالهم ، وفى ذلك يقول الله عزَّ وَجلَّ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حكيم » يعنى لو شاء الله لضيق عليكم فمنعكم أن تقربوا مال اليتيم ولكنه أباح لكم ذلك ما دامت الغاية هى منفعة اليتامى وخيرهم ، وفى ذلك أيضا يقول الله : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » ، بل لقد أوصى الله الأغنياء بألا يأخذوا شيئا من المال نظير قيامهم على أموال اليتامى فقال تعالى: « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ »

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ

وإن للأيام مفاجآت ، وللزمن تقلبات ، والفلك يدور بالناس ، والدنيا دول ، وإذا أصبح المرء صحيح الجسم فقد يمسى مدنفاً سقيما ، وإذا أمسى المرء قرير العين بأبويه ، فقد يصبح يتيما محروماً ، وربما يكون المرء فى يومه شقيًّا شريداً يتيماً طريداً ثم تشرق عليه العناية الإلهيَّة فيُهيِّئ الله له فى الغد القريب حظاً سعيداً ومستقبلاً مجيداً .

تلكم سُنَّة الله فى خلقه ، وذلكم شأن الدنيا ونظام الحياة ، شروق وغروب ، وعبوس وابتسام ، وضحك و بكاء ، وإقبال و إدبار ، والله يُقلِّبُ الليل والنهار .

فمن الحق إذن على كل مسلم عاقل أن يراقب الله فى اليتامى إذا قدَّر الله له الولاية عليهم ، فينظر إليهم نظرة الأب المشفق لأبنائه فى إحسان التربية والتأديب والتثقيف والتهذيب . وحَذار أيها المسلم أن تفتنك الدنيا وتغريك المادة فتتطلع إلى مال اليتيم . حذار من هذا العمل المشين فإن الدهر بالناس قُلّب وعينُ الله لا تنام ، وعدالته ترعى الأنام ، ولينظر الظالم الذى يأكل مال اليتيم إلى أولاده الضعاف إذا ما اختطفه الموت من بينهم وسلّطَ الله عليهم من يظلمهم ولا يرحمهم ، ثم ليتذكَّر جيداً قول الله تعالى : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عليهمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدا ، إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامى ظُلْماً إِنما يأكلون فِي بُطُونِهِمْ نارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا » .

* * *

إن مأدبة اللئام دائماً لا يظفر منها اليتيم بشيء ، ومأدبة الكرام دائماً يظفر منها اليتيم بكل شيء ، والمثل العربى يقول فى تصوير الإنسان الضائع : « أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام » . وهؤلاء الذين يسيئون لليتامى

فضلاً عن مخالفتهم للدين وآدابه هم لئام فقدوا رجولتهم وإنسانيتهم ، ذلكم بأن الرجولة تأبى على الرجل الكبير أن يقف فى الميدان مع ولد صغير ولو كان الولد على باطل ، فما بالكم إذا كان الرجل الكبير هو المتجنّى على الحق والمتشبث بالباطل ، والإنسانية تأبى على المرء إذا كان قويًا أن يأكل حقوق الضعفاء أو يتجنّى عليهم وإلا صار كالوحش فى الغاب يفترس قويُّه ضعيفَه أو كالسمك فى البحار يأكل كبيرُه صغيره . .

* * *

ولقد كرَّم الإسلام اليتيم ، وبالغ فى العناية بأمره حتى لقد جعل زجره بعنف ومن غير سبب مشروع آية على التكذيب بيوم الدين ، فقال تعالى « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدُع اليتيم » .

وإذا كان هذا فيمن يزجر اليتيم بغير سبب مشروع ، فما ظنكم بمن يضربه أو يسرق ماله أو ينهَبُه ؟ لا شك أنه يوبق نفسه ويرديها فى الهاوية وما أدراك ما هيه ؟ نار حاميه . .

وليس بغريب بعد هذا أن يعد الرسول صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم الذى يحسن الكفالة ويؤدى حقوقها والتزاماتها ، ليس بغريب أن يعده الرسول بأن يكون أقرب الناس إليه يوم القيامة . فقد روى البخارى عن سهل ابن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما » .

وسبيل المستضعفين الذين مسَّهم الضُّرُّ وأصابتهم البأساء أن يكافحوا ظلم الظالمين بقدر ما يستطيعون مستظلين بالصبر الجميل ومعتصمين بحبل الله المتين

فى ظلال الصبر الجميل (١)

فى ظلال الصبر الجميل و بين أفيائه الوارفة يعيش أولئك المؤمنون الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لا تمسهم البأساء ، ولا يلفحهم هجير الشقاء ، ولا تؤذيهم متاعب الدنيا وآلامها ، بل يستوى لديهم ليل الحياة ونهارها ، وسراؤها وضراؤها ، وغناها وفقرها ، ولا غرو فإن نور الإيمان يجعل ليل الحياة نهاراً ، و بشاشة الإيمان تحيل الضراء إلى سراء ، والقناعة التى يغرسها الإيمان فى النفوس تُسَوِّى بين الفقر والغنى ، إذ ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس .

ولقد جعل الله هذه الظلال الوارفة جنة المؤمنين فى الدنيا . يفرون إليها حينما تفاجئهم الحياة بما تحمله من متاعب وآلام ، وعنت و إرهاق ومخاوف ، فيجدون فيها من الخير والمتاع ما يبدل خوفهم أمناً ، وألمهم أملا ، وما يجعل من متاعبهم راحة وسعادة وطمأنينة ، ثم يظلون ينعمون بهذه السعادة الروحية والطمأنينة النفسية حتى تنطوى حياتهم ، ويجىء أجلهم ، و إذ ذاك ينتقلون من ظلال الصبر الجميل ، إلى ظل دائم ظليل ، فى جنة عالية قطوفها دانية ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

* * *

ولقد قلت لنفسى — بعد تفكير طويل — عجبا لأولئك الذين يتعامون عن الصبر وظلاله ، و يتجاهلونه إلى هذا الحد المعيب ! إنهم يسعون إلى حتفهم

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠

بظلفهم ، ويلقون بأنفسهم — طواعية واختياراً — فى هجير لافح ، وأتون مستعر من متاعب الحياة وآلامها ، وما مثلهم إلا كالأنعام بل هم أضل ، وإنهم ليعيدون إلى أذهاننا قول القائل :

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وقالت لى النفس — بعد طول انتظار — رويدك يا صاحبى وعلى رسلك فما للأعمى والمرآة ؟ وما للمقعد والمرقاة ؟ كما يقولون . إن أولئك الذين يفرون من الصبر ، ويتشبثون باليأس والجزع لا يرون تلك الظلال ، ولا يدركون ما يكتنفها من روعة وجلال ، وإن الشيطان ليستضعف طائفة من الناس فيضع العراقيل فى طريقهم إلى الصبر ، ويغطى بصائرهم فلا يرون السبيل إلى الخير ومن هنا تنوعت الأنظار ، واختلفت الأهواء ، وكان أصحاب الشمال وأصحاب اليمين « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » .

وقالت لى النفس أيضاً : رويدك يا صاحبى ، ألست تعلم أنّ لون السائل من لون الإناء ؟ وأنّ اللبن الأبيض يحتجب بياضه إذا ما وضع فى زجاجة سوداء ؟ وكذلك الصبر الجميل أمام ضعفاء الإيمان ، يحجبه الشيطان بالوساوس والنزغات والهواجس ، فلا يُرى على حقيقته النقية الصافية ، ومن هنا يجزع ضعيف الإيمان لأنه يرى الصبر أمام عينيه محوطاً بالغبار والأكدار ، فينفر منه ويبتعد عنه . وكما قال القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

أو كما قال الآخر :

ومَن يك ذا فم مُرٍّ مريض يجد مُرًّا به الماء الزّلالا

ومهمة المصلحين من الهداة والمرشدين هى أن يكشفوا الأغطية عن القلوب ، ويزيلوا الغشاوة عن العيون حتى يتميز الخبيث من الطيب ، ويظهر الزائف من الصحيح ، ويُرى الخير على حقيقته ، والشرّ على حقيقته ، ولن يتمّ لهم ذلك إلا إذا جعلوا الدين أساساً ونبراساً ، ونفذوا به إلى القلوب فى يسر وسهولة ، وأحاطوه فى نفوس الناس بمظاهر العناية والرعاية ، وبكلّ ما يمنع عنه عوادى الضعف والوهن ، حينئذ ، وحينئذ فحسب يتذوق أولئك الناس لذة الصبر وجماله . فتهون أمامهم الصعاب ، ويعذب بين أيديهم العذاب . فإن أصابتهم النعماء بما فيها من فتنة وإغراء ، لاذوا بالصبر الجميل ، فكبحوا جماح النفس عن الشهوات الخبيثة ، واللذات الآثمة ، وقاوموا شحّ النفس بالإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وبذل الحق المعلوم للسائل والمحروم . وإن أصابتهم البأساء والضرّاء بما فيها من وبل وشقاء لاذوا أيضاً بالصبر الجميل ، والتمسوا الراحة والسعادة تحت ظلاله الوارفة مطمئنين إلى قوله تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله سبحانه : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » . وإلى قوله صلى الله عليه وسلم — كما ثبت فى الصحيحين — عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى اللهُ عنهما : « ما يصيبُ المُسْلِمُ مِن نصَب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها إلا كفّرَ اللهُ بها مِنْ خطاياه » .

* * *

وإن متاعب الحياة وآلامها كثيرة لا تختص بفقير دون غنى ، بل إنها لتقتحم على الأغنياء قصورهم وحصونهم قبل أن تمر على الفقراء فى أكواخهم ، والصبر هو الملاذ الآمن والحصن المنيع الذى يخفف من غلواء الآلام والمتاعب فتسكن النفس لديه وتتقى به شر المزالج والمعاطب ، وحينئذ يقضى المرء حياته الأولى فى رضى واطمئنان ، وفى الآخرة يجزى الجزاء الأوفى ، ويحظى من الله بالرحمة والغفران

.. ومن الحق على المسلمين فى كل وقت وحين أن يكون لهم فى رسول الله أسوة حسنة وعبرة وتبصرة ، فلقد ابتلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم طفلا وصبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً ، واصطلحت عليه الآلام والمتاعب منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره فلم تخضد الآلام والمتاعب من شوكته ولا أوهنت من قوته وعزيمته .. ، ذلكم لأنه آوى إلى ركن شديد من الإيمان واطمأن إلى قوله سبحانه وتعالى « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

.. ولقد سبقكم إخوانكم المسلمون الأولون إلى ظلال الصبر الوارفة فنالوا الحسنيين ، جنة الدنيا يحفها الرضى والقناعة من فقرائهم ، والشكر والإحسان من أغنيائهم ، وجنة الآخرة يحفها فضل الله ورحمته وغفرانه .

فحينما ألقى بلال بن رباح فى الرمضاء ووضعت الأحجار المحماة بالشمس على صدره ، وقيل له ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمن باللات ، فى هذه المحنة القاسية والآلام المضنية لجأ بلالٌ إلى الصبر الجميل فأحسَّ برد الراحة ونعيم السعادة ، وصاح بقلب ملئ بالإيمان .. أحدٌ أحدٌ ..

وحينما تتابعت الكوارث على المسلمين فى مبدأ ظهور الإسلام ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يجدوا ملجأ من الله إلا إليه جاء خباب بن الأرت مع نفر من إخوانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون ما بهم من ألم وعناء ، ومشقة وبلاء ، ويقولون يارسول الله ، ألا تدعولنا ؟ ألا تستنصرلنا ؟ فى وسط هذا الألم اللافح المرمض ، وجّه الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنظار أصحابه إلى الصبر ، وبين لهم ما يترتب عليه من ظفر ونصر . . وقال — كما جاء فى البخارى — : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمشطُ بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه مايصده ذلك عن دينه والله ليُتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

* * *

وبعد ، فما أحوج الإنسان وهو يتنقل فى صحراء الحياة المليئة بالمفاجآت إلى أن يعتصم بالصبر الجميل ويأوى إلى ظله الورف الظليل ، وحينئذ يكتب الله له الخير والسلامة فى دنياه وآخرته ، « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

أثر الصوم فى إصلاح المجتمع (١)

يستجيب كثير من المسلمين فى أداء فريضة الصوم إلى عاطفتهم الدينية وعاداتهم القديمة التى ورثوها عن الآباء والأجداد دون أن يفكروا لماذا فرض صوم هذا الشهر ، شهر رمضان من كل عام ؟ وما هى الآثار التى يستفيدها المجتمع من هذا التكليف الذى أمر الله به المؤمنين حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات) وحيث يقول (شهرُ رمضانَ الذى أُنزلَ فيه القرآنُ هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شَهِدَ منكم الشهر فليصُمْهُ) .

وقليل من الناس من يصوم رمضان لأنه قد فكر فى أثر الصوم والحكمة التى أرادها الله منه واقتنع بعد ذلك التفكير فلبى نداء العقل والعاطفة معا . واستجاب بعد صوت الضمير لصوت المنطق القويم السليم . . ! ! والنتيجة الحتمية لذلك أن تصبح الغالبية من المسلمين وهى تنفذ أوامر الدين تنفيذا لا يعتمد على التفكير والتأمل ولا يستند إلى الاقتناع بالحجة والدليل ولكنهم يصومون لأن الله أمرهم بالصيام ويصومون لأنهم ورثوا تلك العادة عن أسلافهم من قديم الزمان ، وأغلب الظن أن يكون هذا الاتجاه وما يماثله فى العبادات الأخرى هو السبب فى أن المسلمين ينفذون القانون السماوى فى ظاهره لا فى جوهره ويتعلقون منه بالجسم لا بالروح وكثيرا ما يتجهون إلى الحواشى واللفائف دون الهدف والصميم .

فالدين لم يأمر بالإمساك عن الطعام رغبة فى تجويع الناس وحرمانهم

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ

ولكن لتقوية الإرادة فى نفوس الناس حتى يكبحوا جماح نفوسهم عن الشهوات المرديات والمعاصى المهلكات . و إذن فكل صائم يمسك عن الطعام ولا يمسك عن الفسوق والعصيان والذنوب والآثام ، أو يجوع نفسه لكى يملأ بطنه من الحرام بنهب أو سرقة أو تدليس أو بأية وسيلة من وسائل الإجرام ، أو يمتنع عن الأكل والشرب ولكنه يطلق لسانه فى أعراض الناس بالتشهير بهم أو فى قول الزور والبهتان ، كل من كان على هذا الوضع المشين من الصائمين فصيامه مردود عليه ، ولا يستفيد من هذا النصب والتعب شيئا ، ولا يكسب من صيامه إلا الجوع والعطش والحرمان ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » ويقول « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

* * *

والله عز وجل قد فرض الصوم لصلاح الأبدان وتقوية الأجسام وذلك أن المعدة وهى بيت الداء لها طاقة محدودة وهى — بلا شك — تكلُّ من كثرة العمل واستمراره ولو ظلت تعمل طول العام فلابد أن يحل بها التعب ، بل قد يلحقها و يسرع إليها التلف والعطب ، فكان صوم رمضان فترة راحة واستجمام فيها صلاحها ونشاطها ، وفى ذلك صلاح الجسم وقوته ونشاطه . ولكن كثيرا من الناس ينفذون الصوم بطريقة تجعله مضيعة للصحة ومهلكة للأجسام فهم يجعلون من هذا الشهر معرضا لألوان الأطعمة الشهية ، و يتفننون فى الطرق المغرية على الإسراف فى هذا السبيل ، وحسبك أن تراقب واحدا من الطبقة المترفة الغنية بل من الطبقة المتوسطة فى أيام رمضان ، فانك ستراه بلا شك ينام وعقله مشغول بالطعام ، حتى إذا ما استيقظ صرف كل تفكيره فى إعداد الطعام وتنسيقه ، واتخذ كل الوسائل لتجهيز مأدبة فخمة فيها كل

المغريات على الامتلاء والتخمة فإذا ما جاء موعد الإفطار هجم على الطعام هجوم الوحش الغادر أو الأسد القاهر على الفريسة الذليلة المستكينة ، والتهم الغذاء بجشع وقرم حتى يمتلىء بطنه بالأكل والماء وقد لايدع مكانا للهواء ، فإذا ما جاءت وجبة السحور عاد إلى الطعام من جديد بلا رفق ولا هوادة حتى يكتظ بطنه وتنتفخ أمعاؤه وهكذا يقضى ثلاثين ليلة يثقل فيها المعدة بالطعام الدسم ويتعبها بالأكل الكثير فيعرض نفسه للأسقام والعلل ، وبذلك تنعكس الآية ويضيع الغرض ، وتذهب الحكمة التشريعية للصيام أدراج الرياح . . .

* * *

والله عز وجل قد فرض الصيام ليشعر الغنى بمرارة الجوع فيعطف على الفقراء البائسين والمساكين المعوزين ، ولكن كثيراً من الأغنياء يصومون دون أن يشعروا بمرارة الجوع ، فهم يحاولون أن يغيروا سنة الله حيث يقلبون الليل نهاراً والنهار ليلاً ، ويجعلون الليل للسعى والعمل ، والنهار للنوم والخمول والكسل ويقضون ليلهم ساهرين يأكلون ويتمتعون ، ونهارهم نائمين لا يغدون ولا يروحون بل لا يتحركون . . . وتكون النتيجة أن الأغنياء يصومون رمضان ولا يحسون بألم الجوع والحرمان ، وتظل قلوبهم على قسوتها وشدتها فلا يعطون محروماً ولا ييسرون على مُعْسر ، وبذا تضيع الحكمة المنشودة وتذهب الفائدة المرجوة من الصيام ، وليس اللوم فى ذلك على الإسلام ، إنما اللوم على المسلمين الذين لا يفهمون روح الإسلام وأهداف الإسلام ! !

ولقد جعل الله الصوم مدرسة أخلاقية يتعلم الناس فيها الدروس النافعة ويتلقون فى رحابها المبادىء الهادية ، ولقد نجحت هذه المدرسة كل النجاح حينما أخلص الأساتذة والتلاميذ ، وتعاونوا على البر والتقوى ولم يتعاونوا على الإثم والعدوان ، فكان فى الأمة الإسلامية هداة مرشدون يعلمون الناس مبادىء

الإسلام نظريا وعملياً ، فتفيض الحكمة من ألسنتهم ويشع الإيمان من قلوبهم وتنطق به حواسهم ومشاعرهم خلقاً طيباً وإخلاصاً نقياً وصلاحاً خالصاً واستقامة نادرة المثال . . وكان لهؤلاء الهداة المرشدين تلاميذ ومريدون ، يسمعون فيعون ويعون فينتفعون ويؤمرون فينفذون ، فكانوا كالأرض النقية يصيبها الغيث فيرويها ويحييها وينبت بها العشب الكثير والزرع البهيج النضير . نعم لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المرشد الأول والأستاذ الأكبر للأمة الإسلامية يصوم رمضان فيضرب للناس أروع الأمثال فى تحقيق حكمة مشروعية الصيام ، وكان أصحابه وأصفياؤه يسيرون على آثاره ويستضيئون بأنواره فيصومون ويحققون حكمة الصيام ، إذ تصوم ألسنتهم عن اللغو والهذيان والكذب والبهتان وتصوم جوارحهم عن الآثام والعيوب والمعاصى والذنوب ، وكانوا يحققون حكمة الصيام فلا يتخمون المعدة بأثقال الطعام حتى لا تتعرض أجسامهم للعلل والأسقام ، ولاغروفهم يعلمون أن الحياة ليست غاية حتى تنفق فى المتاع الفانى القليل ، والعرض الضئيل الهزيل ، وإنما هى وسيلة لغاية دائمة ومتاع لا يزول ، ومن أجل ذلك فقد زهدوا فى الدنيا واحتقروا لذاتها وطالما كان يصوم بعضهم الأيام المتتابعة على الأسودين التمر والماء فإن ظفر يوماً باللبن مع التمر عد ذلك فضلاً كبيراً وأشفق على نفسه أن يسأله ربه يوم القيامة عن هذا الترف والنعيم .

***

إن أثر الصوم فى إصلاح المجتمع لا يكمل إلا إذا فهم المسلمون حقيقة الصوم كما فهمها أسلافهم .

فإذا أمكن للمسلمين أن ينتزعوا أنفسهم من هذا التيار المادى الجارف الذى دهمهم فغطى بل طغى على عقولهم وأفكارهم ، استطاعت حينئذ مبادىء الإسلام أن تصل إلى قلوبهم على حقيقتها النقية الصافية ويومئذ نرى للصوم أثره السريع فى إصلاح المجتمع الإسلامى ونجاحه ، ويومئذ يكون شهر رمضان هو الفرصة السنوية التى تغسل الذنوب والعيوب ، وتهيىء للمجتمع الحياة الرشيدة السعيدة . .

فليفهم المسلمون الصوم على حقيقته حتى يظهر أثره فى نفوسهم وأعمالهم ، وحينئذ يبنى المجتمع الصالح الذى يتجه للخير ويهدف للكمال وتسعد به الأمم والأجيال .

الأغانى والموسيقى (١)

فى الحياة الدنيا متاعب مضنية ، وآلام قاسية ، لا تصيب البائس الفقير فى كوخه الحقير فحسب ، ولكنها تمتد إلى الغنىّ المترف فى قصره الشامخ وفراشه الوثير ، ولو أسلم الناس أنفسهم لهذه المتاعب والآلام ولم يقاوموا تيارها العنيف الجارف لأظلمت الدنيا فى وجوههم وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وأحاط بهم اليأس والقنوط من كل جانب . !

فمن الحق إذ ذاك على كل إنسان يعرف الحياة بما تنطوى عليه من خير وشر ، وحلو ومر ، وما يكتنفها من يُسر وعسر ، ونعيم وبؤس ، أن يتزوّد لهجيرها ولأوائها بما يقيه ، ويستعين على وحشتها وظلامها بما يؤنسه ويسليه ولابد له حينئذ أن يسلك السبيل المشروع الذى تقرّه الشرائع والقوانين ، ولا يتعارض فى كثير أو قليل مع مبادئ الأخلاق والدين ! .

وإن الإنسان ليجد فى متاع الحياة المشروع ، ولذائذها المباحة ، ما يغنيه عن التردّى فى الرذيلة ، والوقوع فى مهاوى الفسوق والعصيان ، ولا غرو فإن الله لم يخلق الإنسان للهم والكدر ، والضيق والبؤس والشقاء فحسب ، بل الله أرحم بعباده من أن يحرّم عليهم كل بهجة الحياة وزينتها ، وهو القائل فى محكم كتابه : « قل من حرّمَ زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيّبات من الرّزْق ، قل هى للذينَ آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ؛ كذلك نُفَصِّلُ

---

(١) وردت أسئلة كثيرة إلى الإذاعة السعودية عن حكم سماع الأغانى والموسيقى فطلبت إلى الإذاعة الإجابة على هذه الأسئلة فكانت هذه الكلمة . وقد ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ

الآيات لقوم يعلمون . قُلْ إنما حرَّمَ ربِّى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغىَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشْرِكوا باللهِ ما لم يُنزِّل بهِ سُلطاناً ، وأنْ تقولوا على الله مالا تعلمون » .

ولقد قلت لنفسى متسائلاً بعد قراءة هاتين الآيتين الكريمتين : هل الأغانى والموسيقى من زينة الله التى أخرج لعباده ؟ ومهما يكن من شىء فهل أباحها الإسلام أو حرَّمها ؟ وماذا عسى أن يعتريها من الآراء والأحكام ؟ .

* * *

إن النفس بطبيعتها تألف الصوت الجميل وتعشقه ، وتنفر من الصوت القبيح وتمقته ، وإن الإنسان ليلذ له أن يستمع إلى سجع الحمام وتغريد الطيور ويؤلمه ويؤذيه أن يصل إلى سمعه عواء الكلب أو نهيق الحمير . . وحتى الصبى فى مهده . . تتشوَّق نفسه للصوت الطيب فينصرف عن البكاء ؛ بل ربما ترك ثدى أمّه وهو جائع مؤثراً لذة السماع على لذة الرضاع ، ولعلكم تعجبون كثيراً إذا علمتم أن الأسماك فى البحار يشجيها الصوت الجميل فتتجمع نحوه ، وربما وقعت بذلك فى شرك الصائد وحبائله ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الصيادين فى بحيرة المنزلة ، وهى بحيرة مصرية ، يسيرون بقاربهم فى جوف الليل وهم يصفرون صفيراً شجياً ، ويطرقون صفائح معهم بدقات منتظمة ، فسألت عن السبب فى ذلك ؟ فعلمت أن السمك يطرب لذلك الصوت فيتجمع نحوه حتى يقع فى الحبائل التى ينصبونها لصيده ، وإن الإبل مع بلادة طبعها لتتأثر بالغناء والحداء تأثراً يجعلها تستخف الأحمال الثقيلة ، وتستقصر المسافات الطويلة فتراها إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياء والكلال ، ثم سمعت بعد ذلك صوت الحادى أو ترنيمة الشادى تمدأعناقها وتصغى إليه ناصبة آذانها وتستولى عليها النشوة فتضرب فى البيد ، ويعود إليها النشاط من جديد ؛ بل ربما يلذ لها

السماع فتسير الليالى الطوال حتى يلحقها الموت أو الهلاك وهى ذاهلة عن نفسها بما تسمع من ألحان ومايرتل لها من أنغام وأوزان . ومن ذلك مايروى عن محمد ابن داود الدينورى قال : كنت بالبرية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباء فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ورأيت جِمالاً قد ماتت بين يدى البيت وقد بقى منها جمل واحد وهو ناحل ذابل كأنما ينزع روحه فقال لى الغلام أنت ضيف ولك حق فتشفع فىَّ إلى مولاى فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر ولعله يحل القيد عنى . قال : فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل مالم أشفع فى هذا العبد ! فقال إن هذا العبد أفقرنى وأهلك جميع مالى ، فقلت ماذا فعل ؟ فقال إنه له صوتاً حَسناً و إنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالا ثقالا ، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطّتْ أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفى فكرامتك قد وهبته لك ، قال فأحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمرته أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن أنى سمعت صوتاً أطيب منه

* * *

وقد يُخطئ كثير من الناس فى فهم الحقيقة التى تدل عليها كلمة الأغانى فهم حينما يسمعون تلك الكلمة تنصرف نفوسهم إلى ذلك اللهو والعبث الذى يذاع بين الحين والحين من الأدب الرخيص والشعر الماجن الخليع ، والألحان الفاجرة المستهترة ، و إذا صح أن هذا المعنى هو مايفهم من كلمة الأغانى فهى حينئذ شرٌّ ووبال ، وفى سماعها أو إسماعها خسران ونكال و إثم ضلال ، لأنها تغرى بالفساد وتهيج كوامن الشر ، وتبعث الفتنة من مرقدها ، كما هو الشأن فى كثير من الأغانى المصرية والشامية والعراقية وبعض الأغانى الحجازية التى تصف المحبوب ووصاله ، أو صده ودلاله ، أوحُسنه وجماله ، والتى لايكاد الإنسان يعثر فيها على هدف سليم وغاية كريمة .

ولكن ليست كلمة الأغانى مقصورة على مثل هذا اللهو والعبث ، أو محصورة فى ألوان الخلاعة والمجون والاستهتار ، فهنالك شعر جميل وأدب رفيع يفيض بالحكمة والمعانى الكريمة ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويهيج نواحى الخير والفضائل ويغرى بالشجاعة والإقدام ، وينمى فى النشأ روح الوطنية ، ويذكر الأبناء والأحفاد بمجد الآباء والأجداد ، ويصف المشاهد المقدسة كالكعبة ومقام إبراهيم وزمزم والحطيم ، إلى غير ذلك من كل ما يدعو إلى الخير والبر والمعروف ومثل هذا النوع من الشعر لا بأس بسماعه بل لا أبالغ إذا ما قلت إنه أحياناً يجب سماعه سواء أكان مجرد إنشادٍ وترتيل أو كان بصوت طيب وتلحين جميل .

وإنه ليطيب لنا أن نذكر فى هذا المجال ما قاله الإمام الشافعى ، ففيه ما يكشف النقاب عن وجه الحقيقة ويجليها واضحة للناظرين .

قال الشافعى رحمه الله : « الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده أيضاً مع الألحان . وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال عليه السلام : « إن من الشعر لحكمة » وروى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضى الله عنهما وكان بها وباء فقلت يا أبتى كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويتغنى ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنّة وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » .

ولما أنشد النابغة شعره لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عليه السلام « لا يفضض الله فاك » . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبى الصلت والرسول يقول : « هيه . هيه » ثم قال : « إن كاد فى شعره ليُسْلِم » ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحدى له فى السفر وأن أنجشة كان يحدو بالنساء والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير » ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضى الله عنهم وما هى إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للتلذذ والمتاع . »

* * *

هذا مما يتعلق بسماع الأغانى من الرجال أما صوت المرأة فإذا كان فى غير الغناء فليس بعورة مادام التحدث معها لغاية شريفة وقد ثبت أن النساء كن يتحدثن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمور دينهن . وما زال النساء فى زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال فى الاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك ، أما سماع الغناء من المرأة فهو حرام لأنه يوقظ الفتنة النائمة ويهيج الغريزة الجنسية الغاشمة ، فالسر فى تحريم الغناء من المرأة هو اتقاء الفتنة حتى لو فرض أن صوت بعض النساء من غير غناء يؤدى إلى الوقوع فى الفتنة حرم سماع كلامها ، ومهما قيل من أن بعض الناس لا يفتتن بسماع الأغانى من النساء فهو شذوذ لا يقاس عليه ولا ينظر إليه .

أما الموسيقى فيختلف سماعها باختلاف الآلة التى ينبعث منها الصوت. فموسيقى الأوتار حرام سماعها لأنها شعار أهل الشراب وسماعها يذكر بالخمر ويؤدي للوقوع فى شربها، وذلك أن مجالس الأنس تبدأ عادة بموسيقى الأوتار ثم تنتهى بالخمر وما يتصل بها من آثام وأوزار، فاقتضت حكمة الشارع تحريم هذا النوع من الموسيقى لأنه عادةً مقدمة للشراب، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة للجماع، « وما من حرام إلا وله حريم يطيف به وحكم الحرمة ينسحب عليه ليكون حمى للحرام ووقاية له وحظاراً مانعاً حوله » وأما ما عدا ذلك من أنواع الموسيقى فلا يحرم سماعها وذلك كشاهين الرعاة وشاهين الحجيج وشاهين الطبالين أو بعبارة أخرى كل آلة يخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب والمجون.

وأما الطبول فيحرم منها الدف ذو الصلاصل والصَّنج لأنه عادة أهل الشراب، ويحرم أيضاً سماع الكوبة وهى طبل مستطيل دقيق الوسط، واسع الطرفين، وهى المعروفة فى اللغة العامية المصرية والحجازية بـ « الدربكة »، لأن ضربها من عادة المخنثين، وما عدا ذلك كطبل الحجيج والغزاة، إلى غير ذلك فلا حرمة فى سماعه.

* * *

وبعد فقد تبين الرُّشد من الغَيّ، والحلال من الحرام وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع للشبهات وقع فى الحرام ».

والمؤمن المخلص، هو الذى لا ينحدر إلى الشهوات، بل هو الذى لا يحوم حول الشبهات حتى يكون فى مأمن من تسلط الشيطان وإغوائه، وحتى يستبرأ لدينه وعرضه.

التغالي في المهور (١)

سنتحدث الآن عن بعض العيوب الاجتماعية في الجزيرة العربية . . وسيكون الحديث عن عيب قديم توارثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد، حتى غدا من العادات الأصيلة التي ينساق الناس إليها دون أن يفكروا على ضوء من العقل والمنطق السليم فيما يعقبها من آثار، وما يترتب عليها من أضرار وأخطار .. وليس من العجيب أن يخطىء الناس فإن كل بني آدم خطاء، ولكن العجب كل العجب أن يؤمن الإنسان بخطئه ثم يتمادى فيه، ويلتمس المعاذير الكاذبة لنفسه ولمشاركيه، ومن أجل ذلك فإني أطالبكم — أيها السادة — ألا تكونوا من أولئكم السفهاء، وأهيب بكم أن تبرأوا من كل عيب، وعلى الأخص إذا ما استبان لكم ضرره وخطره، فليس من العقل ولا من الدين أن يتنكب الإنسان طريق الخير والنور، ويرغم نفسه على التخبط في الظلام، والتدنس بالشرور والآثام .

أجل سنتكلم اليوم عن التغالي في المهور وما يترتب عليه من أضرار بالغة في حياة الأفراد والجماعات .. والتغالي في كل شيء قبيح مذموم لأن فيه مجاوزة للحد، وخروجا عن القصد وبعداً عن التوسط والاعتدال . . والمهور التي يدفعها الرجال للنساء إنما هي قيمة فرضها الشرع على الرجل في مقابل استمتاعه بزوجه من الطريق العادي المألوف، وليست ثمناً يشترى به الرجل زوجه كما يزعم بعض الجهال الغافلين، فيتشبثون بمهر ثقيل ويتحكمون في الأزواج هذا التحكم المشين . ولذا فإن هذا المهر إذا ما تم على أساسه

(١) ألقيت بالاذاعة السعودية سنة ١٣٧٠هـ

عقد النكاح لا يبيح للرجل إلا هذه الصلة الزوجية فحسب ، وتبقى بعد ذلك للمرأة حريتها ، ولكنها حرية مقيدة بقوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وبقوله صلوات الله وسلامه عليه « إن لكم عليهن — يعنى على النساء — ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وألا يأتين بفاحشة مبينة » . وتكون للرجل حريته ولكنها حرية مقيدة بقوله تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيرا ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » وبقوله صلوات الله وسلامه عليه « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله »

وإنكم لترون معى أن الغالبية من الناس هنا يتغالون فى المهور إلى درجة التحكم الممقوت الذى يفعله البائع إذا ماعلم أن سلعته ليس لها نظير بين السلع . وأسلم نفسه إلى تيار جارف من الحرص والجشع ، وكثيرا ما تؤدى مثل هذه التصرفات إلى إحجام الشبان عن الزواج سنين عدداً هى زهرة العمر وربيع الحياة ، وتبعاً لذلك يحرم الفتيات من الزواج سنين عدداً هى كذلك زهرة العمر وربيع الحياة ، وبسبب هذا الحرمان الذى يقاسيه الفتيات والفتيان يقع البلاء الكبير والشر المستطير ، أما ماهو هذا البلاء الكبير والشر المستطير ؟؟ فينبغى فى هذا المقام أن يغنى التلميح عن التصريح ، وتكفى الإشارة عن العبارة .

***

وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ألا لاتغالوا فى صدقة النساء فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبى الله صلى الله عليه وسلم ، ماعلمت رسول الله نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتى عشرة أوقية . ويروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان صداق النبى صلى الله عليه وسلم لأزواجه خمسمائة درهم — يعنى مايوازى مائتى ريال سعودى — أما أقل الصداق فقد اختلفوا فيه . فقال الشافعى وأحمد إنه لاتقدير لأقله بل كل ماجاز أن يكون مبيعا أو ثمنا جاز أن يكون صداقا . وقال مالك وأبو حنيفة يقدر الصداق بنصاب السرقة وهوعند مالك ثلاثة دراهم وعند أبى حنيفة عشرة دراهم ، وثبت فى الصحيحين أن امرأة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله قد وهبت نفسى لك ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعّد النظر فيها وصوّبه ، ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها بشىء جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يارسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، فقال هل عندك من شىء ؟ فقال لا والله يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر ولو خاتما من حديد ، فذهب ثم رجع فقال لا والله يارسول الله ولا خاتما من حديد ، ولكن إزارى هذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تصنع بإزارك إن لبسْتَه لم يكن عليها منه شىء ، وإن لبستْه لم يكن عليك منه شىء . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل معك شىء من القرآن ؟ قال نعم سورة كذا وسورة كذا ، وأخذ يعدد السُّوَر التى يحفظها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد زوجتكها بما معك من القرآن ..

ومن ذلك يتجلى لكم أن الآباء أو أولياء النكاح يسرفون على أنفسهم حينما يتغالون فى المهور ويتحكمون فى الأزواج إلى هذه الدرجة البغيضة الممقوتة ،

ولست مبالغاً ولا متجنيا إذا ماقلت إنهم سينالهم نصيب من الآثام التى يتحملها الفتيان والفتيات نتيجة لأمثال هذه التصرفات . .

* * *

وقد يقول بعض الناس فى تبرير مثل هذه التصرفات إن الغلاء مستحكم والزوجة تحتاج إلى أثاث وفراش وزينة ، وهذه مطالب تثقل الكاهل وتكلف باهظ النفقات وتلجىء القائم على أمر الزوجة إلى المطالبة بصداق كبير ، بل إنها لتلجئه إلى الشطط والإسراف ، وهو فيما يرى عين العدل والإنصاف . .

والواقع أن المهر إنما هو فى مقابلة التمتع بالزوجة ، وأما الأثاث فينبغى أن يكون من شأن الزوج وحده ، وهو — إذ ذاك — يكون حراً فى منزله ، يملؤه — إن شاء — بالحرير والفراش الوثير ، أو يضع فيه المتاع القليل والأثاث التافه اليسير .

نعم لقد خلق الله الغنى والفقير وجعل الناس درجات ، والمترفون من الناس لا يحسون بهذا التغالى فى المهور . بل لا يسمى بالنسبة إليهم تغاليا ، ولكن الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة وهم الجمهرة من الشعب يؤذيهم بلا شك مثل هذا التغالى ، فإن مصاريف الزواج ليست هى المهر فحسب ، بل هناك تكاليف وأثقال كثيرة تؤود المقدم على الزواج ، وهى ما يلتزم به الزوج عادة مما يسمى بـ (الشبكة) ومن حفلة الزفاف ومن العادات الأخرى الثقيلة ، ومن التوسعة التى لا بد منها فى الأيام الأولى من الزواج ، وتلكم لعمر الله أكلاف باهظة وأحمال ثقيلة لا يعرفها إلا من ذاق مرارتها واكتوى بنارها .

وقد يكون من الخير أن نذكر شيئا من العادات المصرية فى هذا السبيل ، وهى عادات فيما اعتقد أدنى من الرحمة وأقرب إلى التيسير .

فى مصر يستطيع الرجل من الطبقة الفقيرة وهى عامة الشعب وغالبيته أن يتزوج بمهر تتراوح قيمته بين مائة ريال وثلاثمائة ريال سعودى ، و يستطيع الرجل من الطبقة المتوسطة أن يتزوج بما تتراوح قيمته بين أربعمائة ريال وألف ريال سعودى ، ولا يزيد عن هذه القيمة عادة إلا المترفون من الشعب ، وهم بالقياس إلى غيرهم عدد ضئيل ، ونفر قليل .

***

والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » ، ومعنى ذلك أن المهر لا ينبغى أن يكون موضع مساومة أو عقبة فى إتمام الصلة الزوجية ما دام الخلق قويما والدين سليما ، فلا تغتروا إذن بالمظاهر الكاذبة ولا تردوا من يقدم على الزواج منكم متى استبان لكم خلقه ودينه ، واطمأننتم إلى صلاحيته لتكوين الأسرة والقيام بما تتطلبه من أعباء ، ولا تعلقوا إتمام الزواج — إذ ذاك — على مهر قليل أو كثير ،

ومن الحق عليكم — أيها الأزواج — أن تنظروا من جانبكم إلى ذات الدين والخلق دون أن تعلقوا أهمية كبيرة على جهاز أو أثاث ، ودون أن تعبأوا بفراش أو رياش ، وحينئذ توزع الأعباء بين الطرفين ، وتكون الرحمة متبادلة من الجانبين تحت ظلال وارفة من المودة والتعاون والإخاء .

حقوق الزوجية (١)

الزوجان الذكر والأنثى هما كل شيء فى هـذا الكون ، عليهما تُبنى الحياة ، وبهما يصلُح العالمَ ويكمل نظامه وعمرانه ، فكلاهما متمم لصاحبه ، ونقص واحد منهما ينقص الدنيا ويودى بها ويعرضها للفناء والانهيار . .

وقد كرَّم الله الإنسان بالعقل ، وجعل الرابطة بين الزوجين من بنى آدم لاتقوم على اتصال غريزى واندفاع شهوانى فحسب كما هو الشأن لدى العجماوات والهوام والحشرات ، ولـكنها تقوم على مبادىء سليمة ، وتهدف إلى غاية كريمة هى إسعاد الزوجين ليكون المنزل الصالح ، ثم لتـكون الأُسرة الصالحة ، ثم ليكون المجتمع الصالح الرشيد ، وإلى ذلك يشير الله سبحانه وتعالى بقوله : « وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لـكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أزواجاً لِتَسْكُنوا إليْها وجَعَلَ بَيْنكم مودَّة ورحْمة إنَّ فى ذٰلك لآياتٍ لقوم يتفكَّرون » .

وهذه المبادىء التى تقوم عليها الرابطة بين الزوجين ، إنما هى الحقوق والواجبات التى يلتزم بها كلا الطرفين ، وهى تلك التى دعا إليها الإسلام تمكيناً للمودة وإتماماً للألفة والوئام . . .

* * *

وحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وهى مع ذلك واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، والتقصير فيها مجلبة لسخط الله وغضبه وفى ذلك مافيه من الويل والهلاك ، ومجلبة لسخط الزوج وغضبه وفى ذلك تشتيت الشمل وانفصام العرى وتفريق الجماعة واندلاع الشر والفتنة .

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ فى ثلاثة أحاديث متتالية .

و إن الرجل الذى يغدو إلى عمله فى الصباح كادًّا كادحاً ، و يمكث الساعات الطويلة فى العناء المرهق والمتاعب المضنية لهو أحوج الناس حينما يروح إلى بيته أن يجده مشرقاً بالسعادة والنعيم ، وأن يتنفس فيه ملء رئتيه من الهدوء والصفاء ، والمرأة المؤمنة العاقلة هى التى تهيىء لزوجها حياة منزلية سعيدة ، فإذا اعترضتها المشاكل والعقبات من الجارات والصديقات أحسنت التصرف فحلت تلك المشاكل بنفسها دون أن تنبىء زوجها بما يعكر صفوه و ينغص خاطره ، ولا تلجأ إلى إخبار زوجها إلا فى الأمر الجليل والشأن الخطير . .

وكم من أزواج إذا جاءوا من عملهم لا يغادرون بيوتهم إلا فى القليل النادر ، ذلكم بأنهم يجدون الهناءة فى منازلهم ، وينعمون فيها بالراحة الكاملة والسعادة الشاملة .

وكم من أزواج لا يقر لهم قرار فى بيوتهم لأنهم يجدون فيها الكرب الآخذ بالخناق ، والجحيم الذى لا يطاق ، ولا يتذوقون طعم الراحة إلا أثناء نوم الزوجة أو مرضها ، وهم لذلك ينأون عن منازلهم فى معظم أوقاتهم ، فراراً من جهل الزوجة وطيشها ، و بُعداً عن سفهها وحمقها . .

ولعلّ هذا التباين فى طبائع الزوجات والتغاير فى أخلاقهن هو الذى دفع بعض الأزواج ممن يهنأون بالحياة الزوجية إلى أن يقول :

إن النساء رياحين خُلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين

وهو الذى دفع بعض الأزواج ممن يشقون بالحياة الزوجية إلى أن يخالفه فى رأيه فيقول :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من كيد الشياطين

والزوجة المؤمنة لا تكون لزوجها كالشيطان ، بل تكون له كالروح والريحان

* * *

ومن حق الزوج على الزوجة أن ترضى وتقنع بما يهيئه الله لزوجها فى الحياة من حظ ورزق مقسوم ، وألا تنظر إلى غيرها من النساء اللاتى منَّ الله عليهن بأزواج ذوى نعمة ويسار ، فإن الله سبحانه قد قسم الحظوظ والأرزاق بين عباده ، وهو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وقد زوج الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته من على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ولم يكن ذا سعةٍ من المال ، وكانت فاطمة رضى الله عنها تعانى ألم الحاجة وشظف العيش ، وتقاسى مرارة الحرمان فلا يزيدها ذلك كله إلا الحب لزوجها والإجلال ، والطاعة والامتثال .

وهؤلاء هُنَّ زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ، ما شبعن من خبز شعير يومين متتاليين منذ قدم الرسول الصلوات الله وسلامه عليه المدينة إلى أن قبض إلى جوار ربه كما ثبت فى الصحيحين ، بل لقد كان يمرُّ عليهن الشهر يتلوه الشهر ما توقد فى بيوتهن نار ، ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين أيضا عن عُروة عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : « والله يا ابن أختى إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قلت يا خالة فما كان يُعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيرانٌ من الأنصار وكانت لهم منايح ، وكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا »

* * *

ومن حق الزوج على الزوجة أن تكون أمينةً بكل ما تدل عليه كلمة الأمانة من معانٍ وما تستلزمه من واجبات ، أمينةً على أمواله فلا تضع قرشا

واحداً فى غير موضعه ، ولا تضيّع قرشا وحدا من مال زوجها بغير إذنه ورضاه وكلُّ زوجة تستطيع أن تقدر طاقة زوجها المالية ، فلا تكلفه بمالا يستطيع ، ولا تطالبه بما يزيد عن حاجتها ويخرج عن طاقته .

فزوجة الرجل الفقير أو الموظف الصغير لا يصح أن تطلب من زوجها أن يلبسها أثواب الحرير ، أو يملأ بيتها بالفراش الوثير ، أو يحملها بالحلى الفاخر كما هو الشأن عند زوجات الموظفين الكبار والأغنياء ذوى النعمة واليسار بل إن زوجات الأغنياء ذوى النعمة والثراء لا ينبغى لهن أن يبعثرن الأموال ذات اليمين وذات الشمال فى الكماليات أو فيما هو أقل من الكماليات بل لا بُدَّ من التوسط والاعتدال . فإن الدهر بالناس قُلَّب . إن دام يوما لشخص ففى غدٍ يتقلَّب . والله عز وجل يقول : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ومن واجب الزوجة نحو زوجها أن تكون أمينة كذلك على أبنائه الصغار تقوّم اعوجاجهم ، وتحقق رغباتهم بقدر ما تستطيع على أساسٍ من العقل والحكمة ، وتراقب سلوكهم وتصرفاتهم وتأخذ بأيديهم إلى الخلق الكريم والأدب القويم ، وإذا كان للزوج أبناء صغار من غير الزوجة وهم الذين توفيت أمهم أو فارقت زوجها لسبب من الأسباب فماذا يمكن أن يكون مصيرهم ؟ وما هو واجب الزوجة الجديدة نحوهم ؟

إن الزوجة الجديدة — غالبا — تضع أمام عينها أن هؤلاء أبناء ضرتها فتؤذيهم من غير سبب ، وتعاديهم عداء يدعو إلى العجب . ! فكلامهم العادىُّ فى نظرها ثقيل . وحركاتهم الطبيعية تراها حركات شيطانية ، ثم هى لا تسوِّى بين ولدها وولد زوجها فى المعاملة ، بل كثيراً ما يكون لابنها المغنم وعلى ولد زوجها المغرم ، وقد تطعم ولدها فى السر ما لذ وطاب ، وتبقى لولد

زوجها النفاية والفضلات والأعقاب . والويل كل الويل للولد المسكين إذا اشتكى لأبيه .. تكال له التهم ، وتنسج حوله الأباطيل ، ويرمى بالسفه والجنون وفى مثل هذه الأحوال يجب أن يكون الزوج يقظا كامل الانتباه لما يدور فى منزله من لؤم الزوجات وكيد الزوجات . . أما الدين فيقول لأمثال هؤلاء الزوجات الباغيات : رويدكُنَّ واتقين الله فى الضعفاء الصغار ، واذكرن بطش القاهر الجبار « يوم يَفِرُّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . واذكرن جيدًا قول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شيئاً ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُور » .

ومن واجب الزوجة نحو زوجها أن تكون أمينة كذلك على أقواله وأخباره ، وأن تكون صدراً يحفظ السرّ ويحيطه بالكتمان والستر ، حتى يتيسر لزوجها قضاء مآربه ، ولا يتمكن منه أعداؤه .

ومن واجب الزوجة أولاً وآخراً ، أن تحافظ على عرضها أن يتلوث أو يتدنس ، حتى تكون ممن قال الله عنهن : « فالصَّالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ » . وحتى يتحقق فيها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيرُ النساء امرأة إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إذا صلّت المرأة خمسها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت » .

* * *

والإسلام الذى جعل للزوج هذه الحقوق . قد رسم له حدوداً معلومة ومنهاجاً وسطاً يحفظ عليه كرامته وهيبته ، وهو فى الوقت نفسه يحفظ للمرأة حقها فى الحياة الهادئة والعيشة الراضية . فالزوجة فى نظر الإسلام ليست آلة مسخرة يحقق الرجل بها رغبة ، أو يقضى منها وطراً ومأرباً فحسب ، ولكنها شريكة الرّجل وعمادٌ أساسىٌّ فى إقامة المنزل ، وهى المدرسة الأولى التى يواجهها الطفل منذ فجر حياته فتغذيه بأخلاقها ، وترضعه من طبائعها وعاداتها ، وواجب الزوج أن يشعرها بكيانها وخطرها ، ويبين لها قيمة رسالتها وعظم مسئوليتها ، ويمنحها من الحرية ما يسمح به الدين الحنيف ، ولا يتنافى مع العقل والمنطق السليم .

وإذا كان الإسلام قد جعل الرجال قوّامين على النساء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بعضَهُمْ على بعض وبِمَا أَنْفَقُوا من أَمْوالهمْ . فإن هذه القيامة والأفضلية من جانب الرجل لاتبيح له أن يتحكم فى المرأة كما يتحكم المالك فى السلعة والمتاع . بل لقد قيَّد الإسلام الرّجال بقيود ، ورسم لهم المنهاج ، وأوضح الحدود ، ومن ذلك ما روى عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » . ومعنى لا تقبح ، لا تخاطبها بالكلام القبيح ، ولا تهجر إلا فى البيت . أى المضاجعة ، أما الكلام فلا تهجرها فيه .

وقد بيَّنَ الله عزَّ وجلّ للأزواج أن يتدرّجوا مع زوجاتهم فى التأديب والتهذيب إذا ما علموا من الزوجة النشوز والعصيان ، فيبدأ الزوج أولا بوعظ الزوجة ، مبيناً لها عاقبة سفهها وطيشها ، ومايترتب على ذلك من تشتيت الشمل

وتفريق الوحدة وضياع الأبناء ، ويضرب لها من الأمثلة والعبر ما يجعلها تلمس بيديها عاقبة الطيش والغرور ، فإذا لم تفد هذه فعليه أن يلجأ إلى هجرانها فى المضجع ، ثم إلى الضرب غير المبرح ، فإن أفاد . وإلا كان الفراق عن رضى واتفاق ، وفى ذلك يقول تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيرا ، وإن خفتم شقاقا بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » .

* * *

ولقد كرر الرسول صلى الله عليه وسلم التوصية بالنساء وشدد على الرجال فى ذلك لما يعلم من أن تكوين الرجل واستعداده وتجاربه فى الحياة تجعله أقدر على الصبر والاحتمال من المرأة ، فقال صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . « استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » . وجاء فى الصحيحين « المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن المرأة خلقت من ضلع لن يستقيم لك على طريقه ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج . وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »

ومن تلكم الأحاديث الشريفة يتجلى لنا أن واجب الزوج أن يكون أرحب صدراً ، وأوسع أفقا من الزوجة ، وأنه لاينبغى أن يحاسب الزوجة على هفواتها الصغيرة وزلّاتها اليسيرة ، بل يتغاضى عن مثل هذه الزلّات والهفوات حتى يعيش فى جو هادئ بعيد عن الآلام والمنغصات .

وفى حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم فى خطبته الجامعة « إنما النساء عوانٍ عندكم — أسيرات — أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاستوصوا بهن خيرا ، ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً ، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذنَّ فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهنَّ عليكم أن تحسنوا إليهن فى طعامهنَّ وكسوتهن » .

* * *

ألا إن الخير بالخير والبادئ أكرم ، والشر بالشر والبادئ أظلم ، وعلى الزوج قبل أن يحاسب زوجته على تقصيرها فى حقوقه و إهمالها لواجباته أن يحاسب نفسه ، أيقوم هو نحو زوجته بما تطلب منه أم لا يفعل ؟ . . أينفق أمواله على زوجته وأولاده أم يضيعها فى اللهو واللعب والإثم والعصيان ؟ أهو عف اللسان كامل الأخلاق أم هو غير مفتون وسفيه طائش ؟ ، أيقوم بواجب الزوجية كى يعف زوجته عن الحرام ويعصمها من نزغات الشيطان أم هو منساق للشهوات المحرمة مبدد للطاقة الجنسية فى سبيل غير مشروع ؟ ، وإذا كان له زوجتان فهل هو يعدل بينهما فى المسكن والمطعم والملبس ويقسم الليالى بالسوية . أو هو يكيل بكيلين ويسير بوجهين وضميرين ، وذمتين ؟ . فإذا استوثق من نفسه أنه مستقيم على الطريقة ، سالك سبيل الخير والرشاد ، فليحاسب زوجته بعد ذلك كما يشاء ، ونحن على ثقة ويقين من أن الزوج إذا كان حسن الأخلاق كريم الخصال حميد الفعال ، فإنه سيجد زوجته منساقة بطبعها إلى ما يرضيه ، مؤدية له كل حقوقه ، وحينئذ يسعد الزوجان فى حياتهما وتشرق عليهما الطمأنينة والصفاء . . فيتكون المنزل الصالح . ثم الأسرة الصالحة . ثم المجتمع الصالح الرشيد .

ووصينا الإنسان بوالديه [1]

يرتبط الناس فى هذه الحياة بروابط كثيرة تختلف قرباً وبعداً، وتتنوع قوة وضعفاً، على قدر الاختلاف فى المصالح، وتنوع الأغراض والمآرب . . . ولكن هناك رابطة قوية لا تخضع للأغراض والغايات، ولا تؤثر فيها المطامع والشهوات، وأعنى بها تلك الرابطة بين الآباء والأبناء . وذلك لأنها تعتمد على حنان طبيعى أوجده الله فى النفوس البشرية وركبه فى الطبائع الإنسانية، بل إنه حنان موجود فى جميع الكائنات الحية، يُحسه الإنسان ويلمسه فى الوحش الضارى حين يفىء إلى أشباله الصغار فيضمها إليه، ويمنحها كل مالديه ويمنع عنها العوادى والطوارىء، وربما بذل نفسه وضحى بروحه دفاعاً عنها، وفداء لها ويحسه الإنسان ويلمسه إذا ما رأى الطائر يطعم أفراخه ويسقيها، ويحافظ عليها ويحميها، وإذا تعرض لها أحد بسوء فزع وصاح، وبكاها بالأنين والنواح . . ! !

ولقد عبر الشاعر العربى عن عاطفة الأب نحو أبنائه أصدق تعبير، وصورها أروع تصوير، حيث يقول :

لولا بُنيّات كزغب القطا جمعن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى عن الغمض

وهذه المحبة القوية التى جعلها الله فى قلوب الأبوين هى التى تيسر سبيل

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ

تربية الآباء للأبناء ، وتعينهم على ما تقتضيه تلك التربية من المشقات والأعباء وما من أحد فينا إلا وقد رأى بعينيه ، ولمس بيديه ما يعانيه أبواه فى تربيته منذ يخرج إلى هذه الحياة طفلا وليدا إلى أن يكمل نموه ويشتد ساعده ، ويصبح رجلا له شأنه وخطره .

***

بيد أن محبة الأبوين لولدهما أقوى بكثير من محبة الولد لأبويه ، وقد سئل بعض الحكماء لماذا نحب أبناءنا أكثر من حب أبنائنا لنا ؟ فأجاب لأن أبناءنا جزء منا ، ولسنا جزءاً من أبنائنا ، وقد لاحظ الشرع الإسلامى هذه الناحية فترك الآباء لعاطفتهم الطبيعية القوية ، وكرر التوصية بالوالدين على الأبناء إرشاداً لهم إلى أداء الواجب ، والاعتراف بالجميل ، ورعاية الإنصاف والوفاء ، فقال تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربَّيانى صغيراً » وقال « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » وثبت فى الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت النبى صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال الصلاة على وقتها : قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » .

وذكر القرآن الكريم بر الوالدين بعد عبادة الله وتوحيده فقال تعالى : « واعْبُدُوا الله ولا تشركوا بهِ شيئاً وبالوالدين إحساناً » . وكأن الحكمة فى ذلك ، أنه إذا كان الله سبحانه وتعالى هو السبب الأول والأساسى لوجود الإنسان ، فإن الوالدين هما السبب المباشر فى ذلك ، وإذا كان الله هو صاحب

الفضل الأول على الإنسان ، فللوالدين أكبر فضل وأعظم نعمة بعد فضل الله ونعمته ، وناهيكم بالأم تسهر لينام طفلها ، وتتعب ليستريح ، وتنفق صحتها وسعادتها ، لكى توفر الصحة والسعادة لأبنائها ، وتهيىء لهم أسباب الراحة والاطمئنان . وحسبكم بالأب يغالب الأحداث الجسام ، ويصارع الليالى والأيام ، وكلُّ ذلك فى سبيل مصلحة أبنائه ، ومن أجل توفير الخير والسعادة لهم فالإنسان مَدين بحياته لوالديه ، ومهما بذل فى سبيلهما من خير وبرّ فلن يؤدّى الواجب نحوهما ، ولن يقوم بشكرهما على ما أسديا إليه من معروف وجميل ، إلا من طريق واحد بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيُعتقه » .

وإذا كان من حق الوالد أن يأمر ولده أو يزجره ، أو يهذبه ويؤدّبه ، فإن من الواجب على الولد أن يسمع ويطيع ما دام ذلك فى الحد المرسوم ، والسبيل المشروع . أما إذا تجاوز الوالدان الحدود ، وتخطيا الحواجز والسدود ، « فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » يعنى لاتطعهما فيما يغضب الله ، ومع ذلك لاتسىء إليهما بل عاملهما بالبرّ والإحسان مهما اختلفت العقائد والأديان .

ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : « قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى وهى مُشركة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمى وهى راغبة — أى طامعة فيما عندى — أفأصل أمّى ؟ قال : نعم صِلى أُمّك » .

وقَدَّمَ الرسول صلى الله عليه وسلم برَّ الوالدين على الهجرة والجهاد فى سبيل الله مادام الوالدان فى حاجة إلى مساعدة ولدهما . ومن ذلك ماجاء فى الصحيحين

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « أقبل رجل إلى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله تعالى فقال : هل لك من والديك أحد حىّ ؟ قال نعم ؛ بل كلاهما ، قال فتبتغى الأجر من الله تعالى ؟ قال نعم ، قال فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »

* * *

والبِرّ بالوالدين خُلق كريم يُسْعِدَ الإنسان لا فى الآخرة فحسب ، بل فى الدنيا كذلك ، ولا غرو فإن من يُكرم والديه يُعرف بين الناس بالوفاء والاعتراف بالجميل ، وإذ ذاك يثق الناس به ، ويتبادلون معه المودَّة والإخاء ، ويصيرون أعوانه فى البأساء والضراء .

أما إذا كان عاقًّا لوالديه فإن الناس ينفرون منه ولا يثقون به ، ويقولون فيما بينهم : من لا خير فيه لأبويه وهما أقرب الناس إليه فلا خير فيه لأحد من الناس ، وبذلك تنعدم الثقة به ، ويقضى حياته طريداً شريداً بعيداً عن الله بعيداً عن الناس ، قريباً من النار » .

وبإكرام الوالدين وبرّهما يُفرّج الله الكروب ، ويكشف النوازل والخطوب . ومن ذلك حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحطت صخرة على فم ذلك الغار فسدّته عليهم ، فقد لجأوا إلى الله فى تلك المحنة القاسية ، وتقدموا بين يديه بصالح أعمالهم . فقال أوّلهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً (أي لا أقدم عليهما فى الغبوق وهو شرب العشى) ، فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أُرح عليهما (أى فلم أرجع إليهما) حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت — والقدح على يدى — أنتظر استيقاظهما حتى بَرِقَ الفجر ، والصبية يتضاغون عند قدمَىَّ ،

فاستيقظا فشربا غبوقهما .. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فأخذت الصخرة تتزحزح رويداً رويداً حتى إذا ما أتم الآخران ذِكر ما قدّماه من العمل الصالح تمّ انفراجها فخرجوا يمشون ...

* * *

ولا يقتصر إكرام الوالدين على أيام حياتهما فحسب ؛ بل يمتد إلى ما بعد ذلك ، فلقد ذكر أبو داود عن أبى أُسَيْدٍ رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سَلَمَة فقال : يارسول الله : هل بقى من بر أبوىَّ شىء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ فقال نعم : الصلاة عليهما (أى الدعاء لهما) ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

فَلْيَسْتَجِب الإنسان للرحمن ، ولينفذ وصية الدين بإكرام الوالدين ، فذلك سبيل الحسنيين ، وأساس السعادة فى الدارين .

من أبٍ لأبنائه (١)

«١»

حضرات السادة الأجلاء :

فى حفل المسامرات الافتتاحى من هذا العام ، كان لى الشرف التحدث إليكم فأعلنت فرحى واغتباطى أن أتيح لى ولإخوانى شرف المساهمة فى تدعيم النهضة العلمية بهذه البلاد ، وهو شرف يعتزّ به كلّ مسلم وكلّ عربى لأنه يعبر عن أخوة كريمة بين شعبين شقيقين ، ومملكتين عظيمتين ، هما : المملكة العربية السعودية ، والمملكة المصرية ، وهى أخوة بحمد الله قد دعمها الإسلام ، وغذتها العروبة ، وقوّتها روابط الجوار والصداقة .

ولله قول أبى تمام :

إن يفترق ماء الوصال فماؤُنا عذب تحدرَ من غمام واحد
أو يختلفْ نسبٌ يؤلفْ بيننا أدبٌ أقمناهُ مقامَ الوالدِ

وهأنذا أقف اليوم فى حفل المسامرات الختامى ، لكى أؤكد لكم هذه المعانى الكريمة ، وأردّدها فخوراً ، مغتبطاً مسروراً ، ولا غرو ، فإن هذه البلاد المقدسة الكريمة قد أسدَت إلى الإنسانية الأيادى البيضاء ، وقدّمت إلى العالم أعظم الآلاء ، فمنها انبثق النور المبين الذى أخرَج العالَم من ظلمات الغَىّ والضلال والجهالة ، وأخذ بيدهم إلى الحقّ وإلى الطريق المستقيم . وإذاً فهى صاحبة الفضل الأول ، وهي البادئة بالجميل ، وكلّ مسلم من سائر

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى ندوة المسامرات الأدبية بمكة وذلك فى الحفل الختامى لعام ١٣٦٩ هـ .

الأقطار الإسلامية يُجاهد فى سبيل النهضة بهذه البلاد ليس له فضل ولا يستحقّ شيئاً من الشكر لأنه يؤدى ديناً عليه ، ويردّ جميلًا أسدى إليه . وكما قيل : الخير بالخير والبادى أكرم ، ونحن وإياكم كما قال القائل :

كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

أيها السادة :

إذا كان أحب شىء إلى الآباء أن يقدّموا النصح إلى أبنائهم فإنى أتقدم إلى أبنائنا الطلاب بنصيحة مخلصة راجياً أن تجد منهم قلوباً واعية .

أيها الأبناء الأعزاء :

إن العظمة فى الحياة ليست بالأمر الهين الميسور لكل إنسان ، بل لابد لمن يطلبها أن يتزوّد لها بالرّأى السديد ، والعقل الرّشيد ، والجد والعمل . وإن العظيم لا يمكن أن يبنى مجده من الأوهام أو من أحجار ملقاة فى الرغام . إنما يبنى العظيم مجده من النجوم ، ويمضى إلى غايته صعداً فوق أشلاء المتاعب والمصاعب .

وإن الناس فى هذه الحياة رجلان : رجل يفهم من الحياة عيشاً رغداً ومتاعاً شهياً ، وسنين متطاولة فحسب ، فهو يعبر الحياة سابحاً فى ظلام الأنانية محاطاً بغلاف الأثرة الكثيف دائراً حول نفسه لا يلوى على شىء إلا على منافعه ومآربه ، ومثل هذا الرجل لاخير فى حياته ، بل هو شر ووبال ، ولن تستفيد منه الإنسانية إلا الخسران والنكال .

ورجل يفهم من الحياة أن يكون حيًّا فى أذهان الناس بجليل أعماله وكريم فعاله ، ذاهباً فى السنين بشخصيته لا بشخصه ، تتحدث الدنيا بما أسدى إليها من معروف ، وما قدم لها من خير . ومثل هذا الرجل هو الذى

فهم الحياة وعرف أسرارها ، وهو لا يموت أبداً ، بل يظل فى الحياة خالداً بأثره ، باقياً بمجده وخطره .

ولله قول شوقى رحمه الله :

مَن سَرَّه ألا يموت ، فبالعلا خلد الرّجال ، وبالفعال النابه
ما مات مَن حاز الثرى آثاره واستولتِ الدُّنيا على آدابهِ

فمن الحق عليكم أيها الأبناء أن تهدفوا إلى الغاية الكريمة والخلق القويم ، واعلموا أن العلم بدون خلق كشجر من غير ثمر ، واجعلوا شعاركم الإخلاص . . . الإخلاص لله ، وللوطن ، وللملك ، وليكن لكم مَثل أعلى تجعلونه أمامكم نبراساً يضىء ، ومنارة تهدى وترشد .

ذلكم هو حضرة صاحب السموّ الملكى الأمير عبد الله الفيصل ، وفقه الله وسدد خطاه ، وكتب على يديه الخير للدين والوطن .

ولا يسعنى فى ختام هذه الكلمة إلا أن أذكر بالشكر والتقدير فضيلة الأستاذ الكبير مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع ، كما أشكر من كل قلبى الأستاذ الجليل السيد أحمد العربى مدير مدرسة تحضير البعثات ، والأستاذ الفاضل عبد الله البغدادى رئيس جماعة المسامرات الأدبية ، ووكيل مدير البعثات ، وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه .

من أب لأبنائه [1]

«٢»

أيها الأبناء الأعزاء :

تمر الأيام وتتتابع ، وتدور رحى الزمن بالناس فيغير الله الأحوال بين يأس ورجاء ، وعبوس وصفاء ، وتدمير وتعمير ، وعلو وانحدار ، وذبول وازدهار ، والله يقلب الليل والنهار

ومن الحق على كل إنسان يعبر الحياة بما تنطوى عليه من خير وشر ومن نعمى وبؤس أن يتخذ من الدين ميزاناً ويجعله أساساً ومعوانا ، وهو بهذا يستطيع أن يصارع الفتن ، ويقهر الأحداث والمحن ، ويتجنب الشرور والآثام ما ظهر منها وما بطن ، وهو بهذا وحده يستطيع أن يسير فى العواصف الهوجاء والأعاصير الحمقاء ، ويتقى الأمواج الصاخبة والتيارات العنيفة المتضاربة لكى يصل إلى شاطىء النجاة فى هدوء وأمان وسلام .

ولا شك أن لكل إنسان رسالة فى الحياة يطالبه الدين بأدائها . وكلما أدَّاها كاملة شاملة لاح نجم سعادته واتسعت آفاقه ، وصاحبه اليمن والسداد والتوفيق ، وفى ذلك يقول الله تعالى (إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا) ويقول : (وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه وَالمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون) .

---

(١) أذيعت من الإذاعة السعودية بمناسبة العام الدراسى الجديد ١٣٧٠ هـ ونشرتها جريدة البلاد السعودية فى ذلك الحين .

ورسالة الطالب — أيها الأبناء الأعزاء — إنما تتركز فى العلم والخلق فهما أمضى سلاح تستطيعون أن تنالوا به من براثن الأيام، وهما خير معوان لكم على ما ترجون فى الحياة من آمال كبار جسام . وسبيلكم إلى العلم — أيها الأبناء — ليست مفروشة بالحرير والأثاث الوثير ، ولا محفوفة بالأشجار الباسقة والأزهار المونقة . ولكنها سبيل مفروشة بالأشواك والمتاعب ، محفوفة بالآلام والمصاعب ، عاطلة من البهجة والزينة ، معرضة للأنواء وتقلبات الأجواء ، فلا بد لمن يرتادها ويسلكها أن يصبر نفسه على بعد الشقة ومرارة الطريق وأن يأوى إلى ظل ظليل من الصبر الجميل ، والخلق الكريم والدين القويم ، حتى يصل إلى الهدف المقصود والأمل المنشود ، وحتى تتحقق له الأمانى العذبة الحلوة ، والغاية المرجوّة . وقديماً قال الشاعر العربى :

ومن أراد العُلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وَطرا

لا بد للشهد من نحل يمنعه لا يجتنى النفع مَن لم يحمل الضررا

* * *

أيها الأبناء الأعزاء :

إن طلب العلم ضرورة لازمة لصلاح الإنسان فى دنياه وآخرته . فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومَن أرادهما معاً فعليه بالعلم . وقد قال بعض الحكماء : (اطلب العلم ، فإن كنت فقيراً كان العلم لك مالاً ، وإن كنت غنياً كان العلم لك جمالاً ، وإن كنت يتيماً كان العلم لك أباً وخالا) . والله عزّ وجل يقول : « وَما يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِير ، وَلا الظُلُمَات وَلا النُّور ، وَلا الظلّ ولا الْحَرُور ، وَما يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَاء ولا الأموات » . ويقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعْلَمُونَ والذين لا يَعْلَمُون »

والعلم — أيها الأبناء — لا وطن له ، بل هو حق مشاع كالماء والهواء . والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها ، ويسعى لتحصيلها مهما أنفق فى سبيلها من وقت وصحة ومال ، والله عز وجل قد حث على الهجرة فى طلب العلم فقال: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدِّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلَّهم يحذرون » .

وإذا كان الشرع يحث الناس على الهجرة فى طلب العلم على الرغم مما فى الهجرة من عنت ومشقة وبعد عن الأوطان ، ومفارقة للأهل والإخوان ، فما بالكم أيها الأبناء وقد هاجر العلم إليكم ، وسعى الأساتذة المعلمون حتى وقفوا بين يديكم ، دون أن تكلفوا مشقة الهجرة ومرارة الاغتراب ، ودون أن تنأى بكم الديار ، ويبعد بينكم وبين أهلكم المزار ؟ لاشك أن السبيل إلى الخير مهيأة لكم وممهدة ، والطريق إلى النجاح واضحة معبدة ، ولاعذر لمقصر منكم فى طلب العلم بعد هذا التيسير ، لا عذر له أمام الدين والضمير .

* * *

ولقد كانت الجزيرة العربية منذ القدم حاملة اللواء . وباعثة السنى والسناء ، منها انبثق النور المبين فعمَّ العالمين . وفى بطحائها الجرداء وصخورها الصَّماء تفجرت عيون العلم والمعرفة ، فأحيت القلوب وروت النفوس ، وكانت أساس الخير والبركة للناس أجمعين .

ولكن الزمن الدوَّار القهار قد جعل مَغرباً لهذا النهار ، فتأخرت الجزيرة العربية عن سبقها ، وسبقتها بلاد كانت تسير من ورائها ، وشاء فضل الله ورحمته ألا يطول هذا الليل فأعقبه عما قليل فجر باسم وإصباح جميل ، وكان انبثاق هذا الفجر من جبين الرجل المصلح التقى أسد الجزيرة وعاهلها المفدى جلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود نصره الله وأطال عمره .

أجل . إن البلاد العربية لتدين فى هذه النهضة المباركة الشاملة ، وعلى الأخص تلكم النهضة العلمية إلى مليككم العظيم ، وإلى الدوحة السعودية العريقة ، وإلى إخلاص القائمين بأمور التعليم على اختلاف درجاتهم .

وعلى رأسهم مدير المعارف الموقر فضيلة الشيخ محمد بن مانع . الرجل المخلص المجاهد الذى حمل مصباح العلم المعرفة وسار بإرشاد مليكه العظيم يقود الحملة التعليمية الناجحة ضد الجهالة حتى دخل العلم ظافراً فى كل قرية ومكن الله له من النمو والازدهار ، ولا غرو فبالإخلاص تذلل العقبات وتجنى أطيب الثمرات .

وأعود إليكم أيها الأبناء فأقول : أقبلوا على طلب العلم ولا تقنعوا بالقليل ، فالقناعة إذا كانت محمودة فى كل شىء ، فهى فى طلب العلم بغيضة مرذولة بل هى موت وفناء ، وهلاك وبلاء ، وما أحب الجشع فى التهام العلم والمعرفة وأجله . إنه جشع عظيم الفائدة عميم العائدة ، وهو جشع يعلى قدر الإنسان ، ويغضب الشيطان ويُرضى الرحمن .

ومن الحق عليكم أيها الأبناء ، أن تكونوا لأساتذتكم مطيعين ، ولمعلميكم مكرمين . لأنكم تضمنون بإكرام أساتذتكم أن يخلصوا النصح لكم ويفيضوا عليكم كل ما أفاضه الله عليهم ، ويتعهدوكم بما فى وسعهم من العناية والرعاية . وأنتم تذكرون قول القائل :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذى يبنى وينشىء أنفساً وعقولا ؟

وقول الآخر :

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

* * *

أيها الأبناء الأعزاء :

إنكم تستقبلون عاماً وليداً جديداً ، قد أطلّ علينا وجهه الصبوح ، فى جوّ مظلم كالح . وإن العام الهجرى الجديد ولم تحل بعد لفائفه ، ليقف وقفة المشدوه أمام العالم الشرقى العربى . ويكاد وهو يحبو فى مدارج الطفولة يتمزّق من الأسى والحسرة حينما يرى بعض الدول العربية الشقيقة تشقّ عصا الطاعة ، وتخرُج فى السرّ أو فى العلانية على الجماعة . ولكن الإسلام الحنيف قد علمنا ألا نيأس ، ولقد قال تعالى : « إنه لا ييأَسُ مِن روْح الله إلا القوْم الكافرُون » .

وإن المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية وقد تعاهدتا على الأخوة والتضامن . ليضربان المثل العالى أمام الدول الأخرى التى تحيد قليلا أو كثيراً عن هذا الإخاء والتضامن .

وما دام الإخلاص قائماً — بحمد الله — بين الملكين العظيمين والمملكتين العظيمتين ، فهذا أساس الخير والبركة ، وهو الفجر الصادق فى حياة العرب والإسلام ، وهو البشير بإذن الله بإتمام الألفة والوحدة والوئام[1] .

أما أنتم أيها الأبناء ، فاستقبلوا عامكم الدراسى الجديد ، بنفس طيبة ، وعزيمة قوية ، فأنتم دعامة الأمة فى المستقبل ورجاؤها ومناط أملها ، وحاملو لوائها ، وقادتها — إن شاء الله — إلى الخير والنجاح .

---

(١) تدل البشائر فى هذه الأيام على أن الدول العربية قد تنبهت جميعا — بحمد الله — إلى كيد الأعداء فلاذت بالتضامن التام ، وسيكون لهذا التضامن أثره — إن شاء الله — فى تحقيق آمال العروبة والإسلام .

هذه الدنيا لمن..؟ (١)

يختلف تقدير الناس لهذه الحياة ، وتتعدد وجهاتهم فيها نتيجة لما يحيط بهم من ظروف وملابسات تتحكم فى سلوكهم وتصرفاتهم ، وعلى أساس من هذه النظرات المتعددة المتغايرة يبنى كل إنسان سعادته ، ويسعى لتحقيق آماله .

ومن عجب أن يكون سعى الناس شتى ، وطرائقهم قدداً ، ومع ذلك يفهم كل منهم أن الحق فى جانبه وحده — والحق واحد لا يتعدد — والسر فى ذلك واضح لا ريب فيه ، فإن أغلب هؤلاء الناس إنما يزنون أعمالهم بميزان عقولهم — والعقل البشرى يخطىء ويصيب — ويقيسون تصرفاتهم بمقياس إنسانى والإنسان ليس بمعصوم من الأخطاء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل بنى آدم خطاء » . !

فهذا الذى ينسى الله جل وعلا ، ويتخذ إلهه هواه ، ويفهم أن الدنيا ليست إلا فى أحضان النعيم ، وفى ظل العيش الرغيد ، وعلى بساط من الخفض والرخاء ، والنعمة والثراء ، فيغرق نفسه فى اللذات ، ويلغ فى مستنقع الشهوات مثل هذا ومن يسلك طريقه يفهمون أن الخير كله والسعادة كلها فى تصرفاتهم وأن الدنيا لهم وليست لغيرهم .

وهذا الذى ينفق صحته لكى يوفر الذهب ، ويبدد راحته لكى يجمع الرياش والنشب ، دون أن يجعل فى ذلك نصيباً مقسوماً ، وحقاً معلوماً للسائل والمحروم ، ودون أن يتنبه أو يكترث بوعيد الله تعالى حيث يقول : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تبشر المنفقين بالأجر والثواب ، وتنذر الممسكين بالويل والعذاب . .

أقول إن هذا الذى يمسك يده عن الخير والإنفاق دون أن يرغب فى ثواب الله أو يخشى عقابه ، مِثْل هذا ومن يتبع سبيله يفهمون أن الخير والسعادة فى سلوكهم ، وأن الدنيا قد ألقت بين أيديهم بزمامها ، وحيزت لهم بحذافيرها.

وهذا الفقير المجهود الذى قُدِر عليه رزقه ، والذى عضه الدهر ، واكتوى بنار الفاقة والعسر . والذى يفتح عينه فيُعْشى بصره من بريق الذهب فى قصور الأغنياء ، ويسيل لعابه على شهى الطعام وغريض الشواء ، ثم لا يجد من يجيب لهفته ، ويطفىء حرقته ، ولا يملك بإزاء ذلك النعيم والمتاع إلا النظر إليه والتحسر عليه .

مِثْل هذا ومن على شاكلته من البؤساء المحرومين ، والفقراء المعوزين ، يفهمون أن الخير والسعادة قد أصبحا بمنأى عنهم ، وأن الدنيا ليست لهم ، وإنما هى لغيرهم من ذوى النعمة والمال والثراء الوفير .

* * *

ومن حقنا الآن أن نتساءل ما هى تلك الدنيا التى يتقاتل الناس من أجلها ويتنافسون فى سبيلها ؟ .

لقد وصفها الحكيم العليم فى كتابه الكريم فقال : « إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه منَ السماء فاختلط به نباتُ الأرضِ مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون

عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ، وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجبَ الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم قيمة الدنيا وحقيقتها في أحاديث كثيرة ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله مرَّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْهِ (أي عن جانبيه) فمرَّ بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً ، إنه أسك (أي صغير الأذن) فكيف وهو ميت ، فقال : فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم .

* * *

ومن حقنا بعد ذلك أيضاً أن نتساءل : لمن تكون هذه الدنيا ؟ وأين المغنم فيها والمغرم ؟ ومن الظافر فيها والخاسر ؟

لقد تحير كثير من الناس في الإجابة عن هذا السؤال فلم ينتهوا إلى رأي قاطع ، وأخيراً تمثلوا بقول القائل :

كل من لاقيت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن ؟

ولو أنصف الناس ورجعوا إلى الدين القويم ، والعقل والمنطق السليم لوجدوا الجواب واضحاً بلا مراء ، ودون غموض أو التواء .

إن الدنيا ليست إلا لمن يفهمها ويعلم أنها ظل زائل ، وعرض حائل ،

ومتاع قليل ، فيستغلها لعمل الخير والبر والمعروف لكى يجنى الثمرة يوم القيامة سعادة دائمة ونعيما باقياً .

والدنيا ليست إلا لمن يحتقرها ولا يعبأ بسرابها اللامع ، ووميضها الخادع فإن كان غنياً شكر الله على نعمائه ، وجعل المال وسيلة لاغاية ، وبداية لانهاية ، ولم تفتنه النعمة والثراء حتى يركب متن الغرور والكبرياء ، بل كان فى هذه الحياة كأنه غريب أو عابر سبيل . . وإن كان فقيراً أو مريضاً صبر على البأساء والضراء واطمأن ورضى بالقضاء ، وامتثل واستجاب لربه الكريم الحكيم حيث يقول : « ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » .

وبذلك يستفيد من الحياة ، وتكون الدنيا له لاعليه ، لأنه عرف كيف يستبدل لذة دائمة وسعادة باقية ، بلذة زائلة وسعادة فانية ، وإنما يكون هذا للمؤمنين وحدهم دون غيرهم من الكفار أو المنافقين أو الفاسقين ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد فى صحيح مسلم عن صهيب رضى الله عنه : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . . »

* * *

فالدنيا ليست لمن أوتى المال أو الجاه والسلطان ، إنما الدنيا لمن فاز بنعمة الإيمان وإن كان حظه من المال قليلاً ، ونصيبه من الجاه والسلطان ضئيلا ، بل وإن كان لايملك من حطام الحياة ومظاهرها فتيلا . ولقد وضح هذا المعنى لكثير من المسلمين الأولين ، فطلبوا الدنيا عن طريق

الإيمان ، وتنافسوا فى الخيرات والأعمال الصالحات ، فعاشوا فى سعادة وارفة الظلال ، ثم صاروا فى الآخرة إلى أكرم مصير وخير مآل .

* * *

ولعلنا نستطيع الآن أن نُجيب ذلك المتسائل القائل : « ليت شعرى هذه الدنيا لمن ؟ » . . نستطيع أن نجيبه : إن الدنيا لمن انتفع بها انتفاعاً كاملاً ، واستفاد منها فائدة دائمة ، واتَّجَرَ مع الله فنما رأس ماله إلى عشرة أمثاله ، وبذر الحبة فأنبتت سبع سنابل فى كل سُنبلة مائة حبَّة ، ولن يكون ذلك إلا للمؤمنين المخلصين : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

فالدنيا ليست إلا للمؤمنين ، والآخرة ليست إلا للمؤمنين ، ومن أُوتى الإيمان فقد أوتى كل شىء ، وفاز بالحسنيين ، ونال سعادة الدارين ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

الحياة الخالدة (١)

يتشبَّثُ الناس جميعاً بالحياة ويود كل إنسان لو يمتد به العمر أحقاباً طويلة حتى إذا ما انتهت تلك الأحقاب لم تزده إلّا تعلقاً بالدنيا ، فتمنى لو يتضاعف ذلك الزمن ويتضاعف ، ثم تمنى مع ذلك لو يذهب ليل الشيخوخة وعبوسها لكى يعود إليه نهار الشباب وإشراقه وابتسامه .

وهذه النزعة القوية عند جميع الناس (أعنى حب الحياة وكراهية الموت) نزعة تقضيها طبيعة العمران وعليها يقوم نظام الكون ، ولولاها لأقدم على التخلص من الحياة كل إنسان تفاجئه النوازل أو تحل به الكوارث — وكم فى الحياة من آلام وشدائد — وحينئذ تقفر الدنيا عما قليل من البشر ، وينحدر العالم سريعاً إلى الفناء والزوال .

ولا شك أن المتتبع لأحوال الناس واتجاهاتهم يلاحظ أن الشىء المتغلب والمتحكم فى سلوك الأفراد وتصرفاتهم هو حب البقاء والتشبث بالحياة ، وإن كانوا يتفاوتون فى ذلك ، وتختلف الأسباب التى يتمسكون بها لتحقيق تلك الغاية .

بيد أن العمر مهما طال فهو قصير لأن له غاية معلومة ، والأجل مهما امتد فهو ضئيل لأن له نهاية محتومة ، وإذا أوفى الإنسان على الغاية ووصل إلى النهاية نظر إلى نفسه فوجد أن ما مضى فات ، وما فات مات ، ووجد السنين — على طولها وكثرتها — قد مرت مرور الطيف وتولت كأنها سحابة صيف ،

---

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ

وإذ ذاك يتساوى من عاش عشرين أو أربعين أو خمسين عاماً بمن عاش مائة أو مئات من الأعوام .

وإذن فالمقياس الصحيح الذى تقاس به الحياة وتوزن على ضوئه الآجال والأعمار ليس هو السنين الطويلة ولا الزمن المديد ، وإنما هو العمل الصالح والأثرُ الخالد الحميد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) والصدقة الجارية هى المعروف المغدق الذى تتجدد ثماره وتتوالى آثاره ، والعلم الذى ينتفع به هو العلم الذى يتجه إلى البناء والتعمير لا إلى الإفناء والتدمير ، والولد الصالح هو الغراس الطيب الذى طهرت بيئته . واكتملت له أسباب العناية ، واختار الله له طريق الهداية ، وهو العمر الثانى ، والذكرى الحميده ، والثمرة الناضجة التى ينتفع بها الوالد فيمنحه الله بها حياة على حياته ، ورحمة بعد وفاته ، والشاعر العربى يقول :

عمر الرجال يقاس بالمجد الذى شادوه لا بتقادم الميـــلاد

ومن الشعر الحكيم الخالد :

تموت أحاديث الرجال وتنقضى ويبقى حديث الفضل والحسنات

***

ولهذه الأقوال الحكيمة ما يؤيدها من أحداث التاريخ وعبره ، وسير الرجال وأخبارهم ، فتعالوا معى نتتبع أنباء العظماء وقادة الفكر وزعماء العالم فى عصرنا الذى نعيش فيه ، بل وفى العصور الخالية ، فإننا بلا شك سنجد أناساً ضمَّتهم الأرض فى بطنها منذ مئات السنين ، ومع ذلك فهم أحياء بين ظهرانينا بأعمالهم الخالدة وآثارهم الطيبة ، وإن تاريخهم المجيد ليتراءى أمام

الناظرين صورة قوية تفيض بالحياة بل وتغدو وتروح فتملك الأسماع والأبصار ، وتهز بروعتها الخواطر والمشاعر ، وتحيي القلوب الهامدة ، وتحرك العواطف الخامدة ، وتبنى وتنشىء أنفساً وعقولا .

وإنهم ليتراءون أمام أعيننا غزاة فاتحين يرفعون كلمة الإسلام ويجاهدون فى سبيل الله ، ويبيعون أنفسهم رخيصة ابتغاء مرضاة الله ، ويتدافعون بالمناكب فى ميدان القتال والنضال فرحين مسرورين وإن صوت أحدهم ليجلجل فى مسمع الزمن وهو يخطرُ فى حومة الوغى ويخطو إلى الموت ويلقى بالتَّمرات من يديه ويتغنى ويقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عُرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وهكذا نرى الرجال العاملين أحياء فى أذهان الناس بما أسدوا إلى الإنسانية من الآلاء والأيادى البيضاء ، وهم فى حقيقة الأمر قد استقروا فى الأجداث من مئات السنين ، وسكنوا البرازخ منذ حين أى حين .

* * *

وإلى جانب هؤلاء الأبطال والعظماء الذين خلد التاريخ ذكرهم وتعطرت أنفاسه بسيرتهم ، يعيش أقوام على هامش الحياة ، كما تعيش الهوام والحشرات ويأكلون ويتمتعون كما ترتع البهائم العجماوات ، وربما امتدَّ الزَّمن ببعضهم إلى أرذل العُمر ، حتى إذا ما جاء أجله فارق الحياة فلم تحفل به الحياة ، وودع الدنيا دون أن تشعر الدنيا بوجوده ، أو تأسى لفراقه ، وكتب التاريخ صفحة حياته دمامة فى وجه المجتمع ، ولوثة فى جبين الإنسانية .

ومثل هؤلاء الناس هم فى حال وجودهم على ظهر الأرض أموات غير أحياء ، فما ظنكم بهم حينما ينطوون تحت الرغام وبين أطباق الظلام ؟ إنهم يزدادون موتاً على موتهم ، وإن بقى من أثرهم شىء فليس إلا الشرّ والوَبال ، وحينما يأتى يوم القيامة ، يتمنون لو ترجع الدنيا لهم ، أو يرجعون إلى الدُّنيا يوماً واحداً ، ويقولون : يا ليتنا نُرَدُّ فنعمل غيرَ الذى كُنَّا نعمل . ولكن هيهات أن يحقق الله رجاءهم بعد أن نفذ فيهم سهم القضاء ، وكانوا لأنفسهم من الظالمين .

* * *

إن الحياةَ الخالدة ، لا تقوم إلا على دعائم قوية من الخُلق الكريم ، والدّين القويم الذى يكون للإنسان ذكراً عاطراً بعد موته ، وذخراً نافعاً بين يديه يوم القيامة . وإن لكم فى تعاليم الإسلام وآدابه ، ما يحقق لكم هذه الغاية الكريمة ، ولا غرو فالإسلام دين الإنسانية ، حارب الأثرة والأنانية ، وقضى على النزعات الفردية البغيضة ، وأقام مقامها التضامن والتعاون والأخوة الكريمة ؛ وما تمسك إنسان بمبادئ الإسلام ونفذها فى نفسه وفى أهله وعشيرته ، وفى العلاقات القائمة بينه وبين سائر الأفراد ، إلا سعد فى دنياه وآخرته ، ووهبت له الحياة الكريمة الخالدة .

وفى ثنايا التاريخ الإسلامى ، أمثلة رائعة ، تصوّر لكم الحياة ، ومعنى الخلود فيها ، ولسنا بحاجة ، ولستم أيضاً بحاجة إلى أن نتحدث إليكم عن المئات بل عن الألوف من رجالات الإسلام الخالدين ، وهم الأبطال الذين عاشوا على ظهر الأرض ، فكانت حياتهم طيبة ، وحينما فارقوا الدنيا لم تنته حياتهم ، بل ابتدأت من جديد ، وأشرقت صفحة مجيدة فى سجل الخلود .

رضا الناس غاية لا تدرك (١)

إن مقاييس الخير والشر لدى البشر مختلفة ، وموازين الحق والباطل عندهم متنوعة ؛ والحسن والقبح لا يتساوى الناس فى مدى إدراكهما والإحساس بهما ، ومن أجل ذلك تنوعت الأغراض واختلفت الأهواء . وصارت الحياة مزيجاً من الخير والشر والحق والباطل ؛ فإمام عادل وإمام جائر ، ومؤمن صادق وفاسق منافق ، وبطل صنديد وجبان رعديد ، ومجاهد يبذل نفسه ليرفع كلمة الإسلام ، وآخر يلهو ويلعب ويتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام ، وللفضيلة أنصار وأعوان يؤيدونها ، ويبذلون النفس والنفيس فى سبيلها ، وللرذيلة أنصار وأعوان يسخرون من أعوان الفضيلة ويهزأون بهم .. وهكذا كانت الحياة ولا تزال معرضاً للأعاجيب ومسرحاً للغرائب ، وتلك سنة الله فى خلقه ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا .

وإذا كان رأى الناس لا يمكن أن يجتمع على شىء حسَنٍ أو قبيح ، فهل يمكن أن يرجو إنسان كائناً من كان أن يجتمع الناس على الإعجاب به والرضى عنه والاطمئنان إليه ؟

لقد قَصَّ الله عزَّ وجل علينا من أنباء الرسل — وهم الذين صنعهم الله على عينه واصطفاهم وطهرهم ومنحهم من المزايا العقلية والخلقية ما لم يتيسر لغيرهم — قصَّ اللهُ علينا مِن أنبائهم أنهم كُذِّبوا وأُوذوا ، وأن الناس قد تقوَّلوا عليهم الأقاويل ، ورموهم بالزَّيغ والبهتان والتضليل ، وما من مصلح أو زعيم — مهما أوتى من عقل ناضج وإخلاص وإيثار — استطاع أن يُرضى النَّاس جميعاً ، وأن يسلم من النقد والتجريح والقول القبيح .

(١) ألقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ .

وإذن فليس من العقل ولا من الدين أن يصدر الإنسان فى أعماله عن غرض خاص هو إرضاء الناس فحسب ، وأن يعلق آماله بشىء وهمى خيالى لا سبيل إلى تحقيقه ، بل ولا فائدة فى تحقيقه ، إنما العقل والدّين يقضيان بأن يسعى الإنسان لغرض خاص هو إرضاء الله ، ولا يعنيه بعد ذلك أن رضى الناس أم سخطوا ، أعلنوا الحرب عليه أم سالموا والعقل والدّين يقضيان بألا يحامل الإنسان أحداً على حساب الحق والخلق ، وألا يتغاضى عن منكر من القول أو الفعل إرضاء لعظيم أو كبير ، وألا يسلك سبيل المداهنة والرّياء والمراوغة والالتواء ، فيسكت عن ظلم الظالم وإثم الآثم حرصاً على منصب أو إرضاء لحاكم ..

ولست أريد بذلك أن يتخطى الإنسان حدود الذوق والأدب فيتجاهل أمر الناس أو يهاجمهم فى سلوكهم وآرائهم بطريقة جافية نابية ، لست أريد ذلك ، فإن الدين يأمر المسلم أن يدعو للحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنما أريد أن يجعل الإنسان هدفه الأساسىّ إرضاء الله بقدر ما يستطيع ، متمشياً مع الإنصاف وسالكا سبيل الحق المشروع .

وقد أرشد الله عزّوجل إلى مايرضيه فقال فى محكم كتابه : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فلا خَوْفٌ عليهم ولاهم يحزنون ، أُولَئِكَ أصحابُ الجَنَّةِ خالدينَ فيها جَزَاءً بما كانوا يعملون »

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى عمرو عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك ؟ قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »

* * *

ألا إن رضا الناس غاية لاتدرك بحال ، ومن تعلقت آماله بها فقد تشبث بالوهم والخيال ، ولو تحققت المعجزة لإنسان فاتفق الناس على محبته ورضوا جميعاً عنه ، فماذا تجديه تلك المحبة والرضا إذا لم ترتكز على أساس من محبة الله ورضوانه ؟

و إن رضا الله غايةٌ قريبة المنال ، قد ضمنها الله لعباده بالتقوى والإخلاص والعمل الصالح ، ووعد بها ووعده المحتوم الوفاء

والخير كل الخير للإنسان أن يعمل على إرضاء من يستطيع من أهله وعشيرته وذويه ومن يتصل معه بأى سبب ، كى يضمن صفاء الجو المحيط به ونقاءه من عناصر الشر والفتنة ، فإن توقف رضى أحد من الناس على مايسخط الله و يغضبه فـ « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » إنما الطاعة لله وحده ، وحسبُ المؤمن أن يرضى الله وحده ولو سخط الناس عليه جميعاً ، وكفى الله وليًا ، وكفى بالله نصيرا .

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
الإهـداء	جـ
تقديم بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار	هـ
مقـــدمة المؤلف	١
للبيت رب يحميه	١١
الوازع الدينى	١٧
فى غار حراء	٢١
مثل رائعة من الإيمان	٢٦
عاقبة الظلم وجزاء الإحسان	٣٢
الإسراء والمعراج	٣٩
مواطن العبر فى غزوة بدر الكبرى	٤٥
بين يهود الأمس واليوم	٥٢
غيرة محمودة وتنافس شريف	٥٨
الثلاثة الذين خلفوا	٦٥
الإسلام والعصبية	٧٠
توزيع العطاء بين المسلمين	٧٦
الإسلام يحارب الفقر	٨٢
بين العلماء والملوك	٩١
ولا تطع كل حلاف مهين	٩٦
إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدُوًّا	٩٩
الرشوة والهدية	١٠٢
راقبوا الله فى اليتامى	١٠٥

الموضـــوع	الصفحة
فى ظلال الصبر الجميل	١٠٨
أثر الصوم فى إصلاح المجتمع	١١٣
الأغانى والموسيقى	١١٨
التغالى فى المهور	١٢٤
حقوق الزوجية	١٢٩
ووصينا الإنسان بوالديه	١٣٧
من أب لأبنائه «١»	١٤٢
من أب لأبنائه «٢»	١٤٥
هذه الدنيا لمن ؟	١٥٠
الحياة الخالدة	١٥٥
رضا الناس غاية لاتدرك	١٥٩

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة نرجو تصحيحها كالآتى :

٢٠/٢ وفرغ من بنائه سنة ٣٦١ هـ ، ٢٢/٢ الموالى ، ٧/٤ الفضاء ، ٢٠/٤ الأكفياء ، ٧/١٠ فتنهج ، ٢١/١٨ نُضج ، ٩/٢٤ تشع ، ١/٢٥ الكوة ، ٢/٤٥ اطّلع ، ٩/٨٦ أغنياؤهم ، ٣/٩٥ والأدواء .

للمؤلف

(١) الموالى فى العصر الأموى
(٢) من وحى البلد الأمين

} نشرتهما مكتبة الخانجى بمصر

ويظهر قريبا إن شاء الله

(٣) الموالى فى العصر العباسى الأول

(٤) الحجاز كما رأيته

297.04:N16mA:c.1
النجار ،محمد الطيب
من وحى البلد الامين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005831